ثقافات الشعوب





نزهة الساحرات

حكايات شعبية من آيرلندا

مختارات وتنقيح: وليم باتلر ييتس
ترجمة: تغريد الغضبان

نزهة الساحرات

حكايات شعبية من آيرلندا

مختارات وتنقيح:

وليم باتلر ييتس

ترجمة:

تغريد الغضبان





نزهة الساحرات

حكايات شعبية من آيرلندا

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

نزهة الساحرات: حكايات شعبية من آيرلندا

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR153.5.Y4312 2009
Yeats, W.B. (William Butler) 1865 - 1939.
[Fairy and Folk Tales of the Irish Peasantry]

نزهة الساحرات: حكايات شعبية من آيرلندا/ مختارات وتنقيح وليم باتلر ييتس؛
ترجمة تغريد الغضبان. - ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
168ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 978-9948-01-337-2
ترجمة كتاب: Fairy and Folk Tales of the Irish Peasantry
1 - القصص الشعبية الإيرلندية. 2 - الحكايات الإيرلندية. أ- الغضبان، تغريد.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبو هواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان



info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

هذه السلسلة

تأتـي هذه السلسـلة التـي تجمع تراث الشـعوب مـن الحكايات والأسـاطير والخرافات الشـعبية، منسـجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسـها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العـالم العربـي. تلـك القيم والأهـداف التـي تسـعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسـامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعـراق والجنسيات والثقافـات، وجمعها تحت سقـف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في

أقاصي الغرب، أو شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعَرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

بعد قراءة حكاية «موناشار ومانـاشار» في هذا الكتاب (في الجزء الثالث من الحكايات الآيرلندية)، تذكرّتُ حكاية «الصبيّ اليتيم» التي كنتُ أُصرّ على جدّتي أن تحكيها لي كلما سنحت الفرصة لذلك. كانت تعتدل في جلستها وترخي يديها المليئتين بالتجاعيد في حضنها وتبسمل، ثم تبدأ بقص الحكاية التي تروي قصة صبي يتيم يصعد إلى الجبل ويحفر حتى يجد حبة شعير وحبة قمح، فيترك الأولى ويضع الثانية في جيبه، ثم يبدأ بهبوط الجبل، ليصادف في طريقه امرأة تطحن، فيطلب منها أن تطحن له حبة القمح. ترفض المرأة في البداية بحجة أن حبة قمح واحدة لا تكفي، وسوف تعلق بحجر الطاحون، فيقنعها بقوله: «أنا صبي تيمي، طلعت عَ راس جبيلي، بحشت، بحشت، لاقيت قمحة وشعيري، قمحتي ما بتروح قمحتي ست القموح».

عندما يرجع الصبي لأخذ الطحين تعلن المرأة أسفها، وتخبره أن حبة قمحه علقت في حجر الطاحون، فيقول لها: «أنا صبي

تيمي، طلعت عَ راس جبيلي، بحشت، بحشت، لاقيت قمحة وشعيري، قمحتي ما بتروح، قمحتي ست القموح، قمحتي بحفنة طحين».

وهكذا تتوالى أحداث الحكاية، فيصادف امرأة تعجن، فيحصل منها على رغيف عجين مقابل حفنة طحينه، ثم أخرى تخبز، ثم راعي أغنام، فأبقار، فجمال، حتى يصل إلى بيت يجري فيه عرس. تتكرر جملة الصبي اليتيم محتجاً ومطالباً بالتعويض عما فقده حتى يرجع إلى بيته على حصان مطهّم وخلفه عروس جميلة، فينفخ على سراجه في غرفته الفقيرة قائلاً:

«يا سراجي نوص نوص بالجمل جبتلك عروس».

هذه الحكاية مازالت محفورة في ذاكرتي، رغم تعاقب السنين واتساع التجارب والمشاهدات والقراءات، ولطالما سألتُ نفسي ما سرُّ حكايات كهذه؟ وكيف يستطيع الغول الذي سمعنا حكايته ونحن في السادسة، وكنا نرتجف خوفاً لمجرد ذكر اسمه، أن يرتع في ذاكرتنا، بقدميه الضخمتين وعينه الواحدة، طوال هذه السنوات من دون أن تتمكن شخصيات حديثة - تلفزيونية أو سينمائية - بكل ما فيها من تسلية وسحر وألوان، وما تثيره حولها من صخب - من طرده، أو احتلال مكانه في

قلوبنا التي كبرت مع الزمن، وازدحمت بكل أنواع القصص والأحداث والشخصيات.

وهناك فوق جبال آيرلندا وهضابها، وبين أوديتها ودروبها الترابية الضيّقة، وعلى ضفاف بحيراتها الكثيرة وشطآنها الصخرية، عاش أناسٌ مثل جدتي فقدوا أسنانهم، وخبا الضوء في عيونهم وشابت شعورهم، ومنهم من صار تحت التراب، لكن حكاياتهم البسيطة المليئة بالخيال والغرابة والفكاهة والشفقة مازالت تعيش حيّة نضرة في قلوب كل من سمعها من أجيال جاءت بعدهم.

يقول وليام بتلر ييتس[1] الذي خاض رحلة بحث طويلة وشاقة - وأتخيل أنها كانت ممتعة أيضاً- لجمع هذه الحكايات من أفواه أناس مشابهين لجدتي:

«من الملاحظ أنه حتى في قرية غربية ليس من السهل عليك الإطلاع على قصص الأشباح وأساطير الجن من دون الاختلاط بالناس في بيئتهم، ومصاحبة الأولاد والعجائز وأولئك الذين لا يطحنهم ضغط الحياة اليومية. فالعجائز على سبيل المثال يعرفن الكثير، لكنهن لا يبحن بما يعرفنه بسهولة لأن قصصاً

(1) وليام بتلر ييتس: شاعر ومسرحي إنجليزي من أصل آيرلندي، ولد عام 1865 وتوفي عام 1939. يعتبر واحداً من أهم الأدباء والشعراء في القرن العشرين. نال جائزة نوبل للآداب 1923 (م).

كهذه تعتبر سرية، ومنذ عهد قريب فقط أخذت جرأة الناس تزداد لتناول مواضيع الجن وما شابه. ومع هذا يبدو لي أن هناك عدداً لا بأس به من العجائز اللواتي يغادرن هذا العالم قبل إخبار ما يعرفنه من قصص الجن والأرواح وتختفي تلك القصص والأساطير باختفائهن»[1].

ويشرح ييتس كيفية التعامل مع هذه القصص وتناقلها عبر الأجيال قائلاً:

«تُخبِر تقارير الأبرشية الآيرلندية عن كيفية اجتماع الحكاة مساء لمعاينة نسخ الحكايات التي يعرفونها ومقارنتها، وإن اتضح أن أحدهم لديه نسخة مخالفة لنسخ الآخرين، يقومون جميعاً بروي تلك الحكاية ويجري التصويت، وعلى الحكواتي الذي يتضح أنه صاحب النسخة المغايرة لنسخ الجميع، أن يتنازل عن نسخته، ويعتمد في المستقبل النسخة المتفق عليها من قبلهم جميعاً. وهكذا فقد كان تناقل الحكايات يجري بدقة وجدية، فتتم المحافظة على صيغة الحكاية الأصلية كلمة بكلمة من دون زيادة أو نقصان»[2].

---

(1) من مقدمة جامع ومحرر هذه الحكايات عن الايرلندية، وليام بتلر ييتس والتي نقدم هنا مختصراً لها بسبب شدّة طولها (م).

(2) من مقدمة ييتس.

يؤكد ييتس، الذي اقتفى أثر أولئك الرواة وشاركهم الحياة في أكواخهم الفقيرة «ذات السقوف الدالفة» على بساطة هذه الحكايات التي غدت مع ذلك موازية لآدابنا الحديثة. يقول في مقدمته:

«هذه الحكايات الشعبية مليئة بالبساطة والموسيقى معاً، فهي أدب طبقة من الناس، مازالت تمر عليهم أحداث دورة الحياة المعهودة من ولادة وموت وألم وحب، بالطريقة نفسها منذ قرون. أناسٌ يخمّرون كل شيء يرونه في القلب، ويبدو لهم كل شيء علامة أو رمزاً. ليس لديهم سوى المحراث الذي اخترعه الإنسان القديم، بينما ابن المدينة لديه الآلة التي تؤلّف عنه القصص وتفعل عنه كل شيء، فأدب المدينة أدب محدث نعمة. ولدى الفلاحون أحداث قليلة ولا يسعهم سوى تقليبها مثلما يقلبّون الحطب في مواقدهم حتى لتختلف كل نسخة عن الأخرى وينقلب الخير إلى شر وبالعكس، بينما نحن أبناء المدينة تمر علينا تفاصيل وأحداث كثيرة في اليوم الواحد، لدرجة أن قلوبنا لا تستطيع استيعابها وتحمّلها»[1].

(1) من مقدمة جامع ومحرر هذه الحكايات عن الآيرلندية، وليام بتلر ييتس.

وفي هذا الكتاب اختار لنا وليام بتلر ييتس الكثير من الحكايات، التي سمعها بنفسه من أفواه رواتها- كبادي فلين، العجوز البحار المتقاعد، الذي أكدّ أنه رأى الجن بنفسه وهم يزعجونه، وقد انتشل أحدهم مرة من الماء- أو جمعها من كتّاب سمعوها وأعادوا صياغتها ونشرها مثل كروكر ولوفر وكارلتون وكينيدي وآخرين. حكايات تدخلنا إلى عالم الجنّ الملاعين، والأشباح والعفاريت والساحرات، عرائسُ وعرسانُ البحر، الجميلات الكسولات والأميرات المتكبّرات، العمالقة والنساء ذوات القرون، الزبدة التي ترقص، والجنيّ الذي يصنع الأحذية ويكدس المال، والكثير من الفكاهة والظُرف والسخرية والخيال.

حكاياتٌ مرّت من جيل لجيل ومن لسان للسان ومن قلب لقلب.

تغريد الغضبان

عازف المزمار والعفريت[1]

دوغلاس هايد

يُحكى أنه فيما مضى عاش في مقاطعة «جالوي» وفي «دونمور» تحديداً، عازف مزمار نصف أبله، فرغم ولعه بالعزف، لم يتقن سوى لحن أغنية واحدة هي «المحتال الأسود»، ومع هذا كان يتقاضى أجراً مجزياً من المستمعين، لأنه يسليهم كثيراً. وفي إحدى الليالي، في أثناء عودته للبيت نصف مخمور، من حفلة كان يعزف فيها، صعد أحد الجسور الصغيرة، القريبة من بيت أمه، وأخرج مزماره وأخذ يعزف تلك الأغنية، وفجأة برز من خلفه عفريت أمسكه ورماه على ظهره ومشى به. تمسك عازف المزمار بقرني العفريت الطويلين وقال: «اللعنة عليك أيها الوحش القذر، دعني أرجع إلى منزلي، معي عشرة قروش في جيبي، وأريد شراء سعوط لأمي».

رد العفريت: «لا تشغل بالك بأمك. تمسك جيداً بقرني، لأنك إن وقعت ستكسر عنقك ومزمارك. هيا اعزف لي أغنية «شان فان فوتش».

(1) في الأصل «بوكا» وهو روح حيوانية، اسمه مشتق من «بوك» بالآيرلندية أي التيس، ويعيش في الجبال المنعزلة وبين الخرائب القديمة (المؤلف).

رد عازف المزمار: «لا أعرفها».

فأجاب العفريت: «لا يهم إن كنت تعرفها أم لا، هيا اعزف وأنا سأجعلك تعرفها». نفخ العازف قربة مزماره[1] وعزف ألحاناً ساحرة، أدهشته هو نفسه. فاستدار نحو العفريت وقال: «بشرفي أنت معلم محترف في الموسيقى، لكنك لم تخبرني إلى أين تأخذني».

«هناك وليمة عامرة، ستقام الليلة في بيت الجنية النائحة[2] عند قمة كروف باتريك، سآخذك معي لتعزف فيها وصدقني ستنال ما تستحقه من أجر».

قال العازف: «أقسم بأنك وفّرت عليّ عناء الرحلة، فقد فرض عليّ الأب وليام الذهاب الى كروف باتريك، عقاباً لي على سرقة ذكر الإوز الأبيض منه، في قداس مارتن الماضي».

وهكذا ركض العفريت به عبر الهضاب والمستنقعات والأماكن الموحشة، حتى وصل إلى قمة «كروف باتريك». وهناك خبط بقدمه ثلاث خبطات فانفتح الباب أمامهما، ودخلا

(1) قربة المزمار مثل الحقيبة تملأ بالهواء في المزامير الأيرلندية التقليدية (م).
(2) The banshee الجنية النائحة وهي روح أنثى من الجن تنوح بالقرب من البيت الذي ستحدث فيه وفاة، منذرة بذلك (م).

إلى غرفة أنيقة، تجلس فيها مئات النسوة العجائز حول طاولة من ذهب، تتوسطها. حين رأين العفريت، وقفن، وقلن، مسلمات عليه: «مرحباً بك مئات آلاف المرات، يا عفريت نوفمبر. لكن من هذا الذي أحضرته معك؟».

أجاب العفريت: «إنه أفضل عازف مزمار في آيرلندا كلها».

قامت إحدى العجائز بضرب الأرض بقدمها فانفتح باب عن جانبها في الجدار، برز منه على الفور ذكر الإوز الأبيض، الذي سرقه عازف المزمار من الأب وليام. فقال عازف المزمار مستغرباً: «أقسم بشرفي أنني التهمت ذكر الإوز هذا مع أمي، ولم نبقِ منه عظمة واحدة، باستثناء جناح، أعطيته أنا لماري الحمراء، وهي التي وشت بي للأب وليام».

أسرع ذكر الإوز بتنظيف الطاولة من بقايا الوليمة، ثم قال العفريت للعازف: «اعزف بعض الموسيقى لأجل السيدات».

ففعل عازف المزمار كما طُلب منه، وأخذت العجائز يرقصن دون توقف، حتى تعبن، ثم طلب العفريت منهن أن يدفعن أجرة العازف فقامت كل واحدة منهن بنقده قطعة من

الذهب. صرخ العازف بفرح: «أقسم بأسنان القديس باتريك، بأنني أصبحت غنياً كابن سيد من الأسياد».

فقال العفريت: «هيا تعال معي لآخذك إلى بيتك الآن». وحين خرجا وهم العازف بركوب ظهر العفريت، ظهر ذكر الإوز آتياً نحوه، وسلمه طاقماً جديداً من المزامير. ثم قام العفريت بإيصاله بسرعة إلى «دونمور» وعند الجسر الصغير بالقرب من بيت أمه، ودعه قائلاً: «ها أنت تملك الآن شيئين، لم تكن تملكهما قطّ من قبل: الإحساس والموسيقى».

وهكذا انصرف العازف إلى بيته ودق على الباب، منادياً أمه: «افتحي الباب يا أمي، لقد أصبحت غنياً كابن سيد محترم، بالإضافة لكوني أصبحت أفضل عازف في آيرلندا».

أجابت أمه: «أنت سكران».

فرد عليها: «لا البتة، لم أشرب نقطة واحدة».

فسمحت له بالدخول، ثم أعطاها قطع الذهب التي جناها قائلاً: «انتظري حتى أُسمعك الموسيقى المدهشة التي أعزفها».

وأخذ ينفخ في المزمار، لكن بدلاً من الموسيقى، خرج صرير مزعج، كأنه قادم من عشرات الإوزات وذكور الإوز المتصايحين، مما أيقظ الجيران ودفعهم للسخرية منه، هكذا حتى ألقى بالمزمار الجديد، وأمسك بمزماره القديم، عازفاً لهم ألحاناً عذبة أسكتتهم وأرغمتهم بعدها على الإصغاء لما قصه عليهم من أحداث تلك الليلة. لكن في الصباح، عندما قامت الأم لتفقد قطع الذهب، لم تجدها، ورأت عوضاً عنها أوراق نباتات لا غير. فقصد العازف بيت القس، وأخبره بالقصة كاملة، لكن القس لم يصدقه، حتى حمل مزماره وأخذ يعزف، فخرج منه صياح الإوز بدلاً عن الموسيقى، فصاح القس غاضباً: «أغرب عن وجهي أيها اللص» . لكن العازف لم يستسلم، بل وضع المزمار الجديد جانباً وحمل مزماره القديم، وصار يعزف ألحاناً بمنتهى الرقة والروعة. ومنذ ذلك الحين وحتى موته لم تعرف مقاطعة «جالوي» عازف مزمار أفضل منه.

دانيال أورورك

توماس كروفتون كروكر

سمع الكثير من الناس بمغامرات دانيال أورورك الشهيرة، لكن قلة منهم عرفوا الأسباب الخطيرة الكامنة وراء تلك المغامرات. أولم يكن نومه تحت جدران «برج العفاريت» سبباً كافياً لها؟ كنتُ على معرفة جيدة به. فهو يسكن في أسفل هضبة «هنجري»، بالضبط عند الجهة اليمنى من الطريق المؤدية إلى «بانتري». وقد كان عجوزاً شائب الشعر أحمر الأنف حين أخبرني قصته.

أذكر تماماً أنني سمعتها من شفتيه في الخامس والعشرين من شهر يونيو عام 1813. جلس حينها تحت شجرة حور يدخن غليونه، والمساء هادئ كهدية فريدة لنا من السماء. وقد كنتُ متجهاً لزيارة الكهوف في جزيرة «دورسي» بعد قضائي الصباح في «جلين جاريف». قال لي: «لستَ أول من يطلب إلي أن أقصّ عليه قصتي أيها السيد، الكثيرون فعلوا هذا من قبلك. قدِم مرة ابن السيد عائداً من رحلة تجول خلالها في مناطق بعيدة من

فرنسا وإسبانيا، كما اعتاد الشبان أن يفعلوا قبل سماعنا بنابليون بونابرت أو أي واحد من أمثاله. وبالطبع أُقيمت وليمة عشاء على شرفه دُعي إليها جميع الناس، من أغنياء وفقراء. ومثلما تعلم، السادة هم السادة. يفعلون ما يحلو لهم ساعة يشاؤون. فمرة تسمعهم يقسمون بأرواحهم، ومرة تراهم يسوطون فلاحاً ما، لكنهم بشكل عام متساهلون ومهذبون ولم نكن نتأذى كثيراً منهم على أي حال. وهكذا تظل الحياة في بيوتهم تجري بحيوية ونشاط ، حيث يستقبلون ويودعون بكرم وترحاب، ولا يفرضون إيجاراً على الفلاحين، ومن الصعب أن تجد أجيراً[1] واحداً لم يحظَ بهبات وعطايا من سيده عدة مرات في السنة الواحدة. الآن تغير الحال بالطبع. لكن لا عليك، من الأفضل أن أبدأ بإخبارك قصتي.

«كانت حفلة رائعة. أكلنا وشربنا ورقصنا. والسيد نفسه رقص بصحبة بيجي باري، من بوهيرين - ويا لهما من زوج رائع هو وهي، رغم أن كلاهما الآن بحالة بائسة - لكن لن أطيل عليك، باختصار غـادرتُ المكان دون أن أتذكر كيف ولماذا، لكنني واثق من أنني كنت أترنح من السُكر ولذلك لم أعد

(1) الأجير هو الفلاح الذي يعيش ويعمل في قرية يملكها الإقطاعي الذي يدعى هنا بالسيد (م).

أتذكر. قلت في نفسي لِمَ لا أمر في طريقي على مولي كرونوهان، المرأة الجنية، لأتحدث معها عن العِجلة المسحورة، وهكذا وبينما كنتُ أعبر عتبة قلعة بالي ياشنوج ناظراً نحو النجوم، متمنياً أن أحظى بالتوفيق لأنه كان يوم عيد السيدة[1] وإذ أتعثر فجأة، وأقع في الماء. قلت في نفسي، وأنا بين الحياة والموت: ستغرق الآن. لكنني قاومت، وأخذت أسبح وأسبح محاولاً النجاة بروحي، حتى وصلت إلى الشاطئ. لكن ما استغربته حينها وما أزال أستغربه إلى الآن هو أنني وجدت نفسي على شاطئ جزيرة كأنها ظهرت فجأة من العدم. تجولتُ طويلاً فيها دون معرفة طريقي وأين عليّ المضي، حتى وصلت أخيراً إلى مستنقع كبير، ورأيت القمر يشعّ بضوء واضح كضوء النهار، أو كعيني حبيبتك يا سيدي إن كان لك حبيبة (واعذرني أرجوك لأنني أتيت على ذكرها) ونظرت شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، فلم أرَ إلا مستنقعاً واسعاً ممتداً إلى ما لا نهاية، مستنقعاً لم أعرف كيف وصلت إليه وما إذا كنت سأخرج منه حياً. وانتابني فزع شديد من فكرة الموت فيه، ولم أستطع فعل شيء سوى حك رأسي والدندنة بلحن حزين بعد أن جلست على حجر وجدته، لحسن الحظ، بقربي. وفجأة، أظلمت السماء واختفى ضوء القمر، وحين نظرت

(1) Lady day يوم إعلان سيدنا جبريل لمريم العذراء عليها السلام عن ولادة السيد المسيح. يصادف في الخامس والعشرين من شهر مارس (م).

للأعلى رأيت شيئاً لم أعرف ما هو بالضبط يتحرك قادماً نحوي، مصدراً بهبوطه صوتاً مدوياً ثم اقترب كثيراً مني وصار تماماً في مواجهتي. ولدهشتي لم يكن ذلك الشئ إلا نسراً من أجمل ما يمكن أن يحلق من مملكة كيري[1].

حدّق في وجهي قائلاً: «كيف حالك يا دانيال أورورك؟». وأجبته من دون أن تفارقني دهشتي من تمكن نسر على التحدث بلغة البشر: «بخير يا سيدي، شكراً، أتمنى أنك بخير أيضاً».

ثم سألني: «ما الذي جاء بك إلى هذا المكان يا دان؟».

فقلت: «لا شيء على الإطلاق يا سيدي. فقط آمل الرجوع إلى بيتي بسلام».

فقال: «هل ترغب بالخروج من هذه الجزيرة يا دان؟».

وكان ردي: «نعم يا سيدي». ثم أخبرته كيف أكثرت من الشراب وسقطت في الماء، وكيف سبحت حتى وصلت إلى تلك الجزيرة، وكيف وجدت نفسي في ذلك المستنقع الذي لم أجد سبيلاً للخروج منه.

(1) kerry مقاطعة كيري في آيرلندا (م).

فقال لي بعد لحظة تفكير: «لقد أكثرت من الشراب في يوم مقدس كيوم السيدة، وهذا ليس بعمل لائق، وبما أنك رجل محترم لا يتخلف عن حضور المناسبات الدينية، ولم يرمِ حجراً يوماً عليّ أو على صغاري، أو يطاردنا هنا وهناك في الحقول، فإني مستعد لإنقاذك ولو على حساب حياتي. هيا اصعد على ظهري وتشبّث بي جيداً كي لا تقع، وسأطير بك بعيداً عن هذا المستنقع».

فقلت له: «لكنني أخشى يا سيدي أنك تمزح، فلم أسمع من قبل بركوب ظهر النسر كالحصان».

فأجابني بكبرياء واضعاً قدمه اليمنى فوق صدره: «المزاح ليس من عادتي كسيد موقر، على كل حال أنا في عجلة من أمري، فإما أن تقبل بعرضي أو تموت جوعاً هنا، بالإضافة لكونك توشك على الغرق».

وبالفعل كان ما يقوله صحيحاً، لأنني أحسست أن الحجر بدأ يغوص في الماء تحتي أكثر فأكثر. ولم يكن لديّ خيار آخر، وفكرت بأن الجبان لا يحظى بقلب شابة جميلة، وكان عرض النسر المقدم لي بمثابة تلك المرأة الجميلة وعليّ أن أغامر. فقلت له: «إني موافق على عرضك الكريم وممتن للطفك وتهذيبك».

ثم صعدت على ظهره وتمسّكت جيداً بعنقه، غير مدرك للحيلة التي سيفاجئني بها. وبقي يحلّق عالياً إلى حيث لا يعلم غير الله. ولأن روحي معلقة بين يديه، ومن الخطر مصارحته بأنني أشك بمعرفته للطريق، فقد قلت له بتهذيب: «أرجو من شرف سيادتك، ودون أي شك بصواب حكمتك، أن تسمح لي بطلب متواضع وهو أن تحلق على مسافة أقل ارتفاعاً، فنحن فوق بيتي الآن، وبإمكانك إنزالي هنا، مع جزيل شكري لسعادتك».

فرد قائلاً: «أف يا دان، أتظنني أحمق؟ انظر نحو الأسفل للحقل التالي، ألا ترى رجلين مسلحين بالبنادق، بشرفي لو أنزلتك الآن لمتَّ بالرصاص، ولكان أفضل لك لو أني تركتك تموت غرقاً فوق ذلك الحجر في المستنقع».

لعنته في نفسي ولم أنطق بحرف فما الفائدة. وهكذا يا سيدي تابع محلقاً بي وقد كنت بدوري أطلب منه بين الحين والآخر أن ينخفض قليلاً لكن دون جدوى. حتى قلت له: «أين تظن نفسك ذاهباً يا سيدي؟».

فأجاب بغضب: «احفظ لسانك يا دان ولا تتدخل في ما لا يعنيك».

ورددتُ عليه: «عليّ أن أعرف إلى أين تأخذني، أعتقد أنه أمر يعنيني بالتأكيد؟».

فقال: «اخرس يا دان». فخرستُ. وفي النهاية إلى أين تظن أنه أخذني؟ لقد وصل بي إلى القمر نفسه. ورأيت ذلك المنجل الذي نراه عادة متدلياً عن جانب القمر، أو على الأقل كنا نراه على زمني كذلك» (ورسم على الأرض بعصاه شكل المنجل الذي رآه). ثم قال النسر لي فجأة: «لقد تعبت يا دان، لم أتوقع بأنه سيكون طيراناً طويلاً لهذه الدرجة».

وأجبته: «ولكن يا سيدي من طلب منك أن تحلق بعيداً هكذا؟ ألم أتوسل إليك وأترجاك وأصلي لأن تتوقف منذ أكثر من نصف ساعة مضت؟».

فقال: «لا فائدة من الكلام الآن يا دان، أنا متعب بما فيه الكفاية، وعليك أن تترجل عن ظهري وتجلس هنا كي أستريح قليلاً».

فسألته: «أتقصد الجلوس هنا فوق القمر؟ على هذا الشيء المستدير؟ لو فعلت بالتأكيد سأقع في الحال وأتمزق إلى قطع متناثرة. يا لك من محتال، نعم لست إلا محتالاً».

فرد عليّ: «لا، إطلاقاً يا دان. بإمكانك أن تتمسك بذاك المنجل البارز عن جانب القمر وهو سيمنعك من السقوط».

فقلت: «لـن أفعل. فكيف أضمن أن يقيني المنجل من السقوط».

فرد قائلاً: «اصمت، اصمت، إذا رفضت يا عزيزي فما علي إلا أن أهز جناحي ببساطة فتقع عنهما، وهناك فوق الأرض ستُسحق عظامك وتتحول إلى ذرات صغيرة مثل قطرات الندى فوق ملفوفة في الصباح».

فقلت في نفسي: «إذن الأفضل لي أن أقبل بالجلوس على القمر. ما الذي جعلني أتورط بالمجيء مع أمثالك».

ثم شتمته شتيمة بذيئة بالآيرلندية (خوفاً من أن يفهم ما قلته) وبعدها هبطت عن ظهره دون حماس. تمسكت بالمنجل وجلست على القمر. ويا له من مقعد بارد. وبعد أن اطمأن لجلوسي هناك، استدار وقال: «صباح الخير يا دانيال أورورك. أظن أنني أخذت بثأري منك. لقد سرقتَ عُشي في السنة الماضية (وهذا صحيح لكن لا أدري كيف علم بذلك) وبالمقابل سأترك لك حرية الجلوس على سطح القمر والتطويح بقدميك كي تتسلى».

فقلت: «أهكذا إذن، ستتركني بهذه الطريقة أيها الجبان، أيها الوحش القبيح؟ أهكذا تفي بوعدك في مساعدتي؟ اللعنة عليك وعلى أنفك المعقوف وعلى كل نسلك أيها الوغد». لكني لم أجنِ أية فائدة من كل هذا الكلام البذيء، فقد بسط جناحيه الكبيرين، وانفجر ضاحكاً، ثم حلق مبتعداً كالبرق. رجوته أن يتوقف، لكنه لم يفعل. وأظن أنني لو قضيت عمري أتوسل إليه أن يرجع لما اكترث البتة. وبسلامتك، من يومها إلى يومنا هذا لم أره ولو مرة واحدة. وهكذا بإمكانك أن تتخيل كم كانت حالتي مزرية، وكم صرخت وبكيت، لكن فجأة انفتح باب وسط القمر، ومن تظن سيخرج منه سوى القمري[1] نفسه، فأنا أعرفه من كثته[2]. خاطبني قائلاً: «صباح الخير يا دانيال أورورك، كيف حالك؟».

قلت: «بخير، شكراً لحضرتك. أتمنى أنك بخير أيضاً».

فقال: «ما الذي جاء بك إلى هنا يا دان؟».

فأخبرته كيف شربت أكثر من اللازم في حفلة الأسياد، وكيف تهت في تلك الجزيرة العائمة، وكيف ضعت وكدت أغرق في

(1) القمري أو رجل القمر (م).
(2) الكثة: كتلة شعر الرأس (م).

المستنقع، ثم كيف جاء النسر النصاب، ووعد بإنقاذي، وبدلاً من تخليصي، طار بي إلى القمر. حين انتهيت من روي قصتي استنشق القمري قليلاً من السعوط ثم قال: «لا يجب أن تبقى هنا يا دان».

فقلت: «بالتأكيد، فأنا موجود هنا رغم إرادتي. لكن كيف يمكنني العودة؟».

أجابني: «هذا شأنك. أما أنا فمن واجبي إخبارك بضرورة المغادرة فوراً».

فقلت: «لكنني غير مؤذٍ، أتمسك فقط بهذا المنجل كي لا أقع».

فردّ قائلاً: «هذا بالضبط ما يجب عليك ألا تفعله يا دان».

فقلت متوسلاً: «لكن كم عدد أفراد عائلتك لو سمحت لي بالسؤال، فمن المؤكد أنكم كثيرون وبالتالي لن تبخلوا بتقديم المساعدة لغريب مثلي قطع مسافات بعيدة ليحظى برؤيتكم».

فردّ قائلاً: «أنا وحيد هنا يا دان. ومن الأفضل لك أن تترك هذا المنجل الذي تتعلق به».

فقلت: «أقسم بأنني لن أفلت يدي، وكلما ألححتَ في طلبك أصررت على التمسك به أكثر».

فقال: «يجب ألا تفعل يا دان».

حدجته بازدراء ثم قلت: «لديّ كلمتان فقط أجيب بهما على طلبك، ولن أتراجع عنهما أيها الرجل الصغير. أما أنت فيمكنك تغيير رأيك إن أردت».

فقال بحسم: «هكذا إذن. لنرى ما سيحدث».

ثم انصرف من حيث جاء، غاضباً وقد تعمد صفق الباب خلفه بشدة، جعلتني أحس بأن القمر وما عليه سيسقط منهاراً. وكنت أستعدّ لاستخدام العنف معه، عندما رأيته يفتح الباب ويدخل ثانية وبيده ساطور، ومن دون أن ينطق بكلمة، ضرب مقبض المنجل الذي كنت متعلقاً به ضربتين قويتين، وهووب .. انفلق إلى قطعتين. قال وهو يراني أسقط، وإحدى يدي لا تزال متمسكة بالمنجل: «مع السلامة يا دان، وشكراً على الزيارة، عسى أن يكون رحيلك فاتحة خير».

لم أجد الوقت الكافي للرد عليه، فقد كنت أتشقلب، وأدور، ساقطاً بسرعة دون توقف. ثم قلتُ في نفسي: «آه، كان الله في

عوني. هذه ورطة مخزية. فماذا لو أن أحدهم رآني، أنا الرجل المحترم، أتشقلب في الهواء بمثل هذه الساعة من الليل، لقد نلت جزائي بالفعل».

وما كدت أنطق هذه الكلمات حتى .. وووز.. وماذا تُراني أرى غير سرب من الإوز البريّ يحلق بالقرب من أذني! لابد من أنه قدموا من مستنقع بالي ياشيناج وإلا كيف عرفوني! مدّ ذكر الإوز العجوز والذي كان قائدهم رأسه وصاح بي: «أهذا أنت يا دان؟».

أجبته: «هذا أنا بلحمي وشحمي».

ولم أشك للحظة بما سيقوله لاحقاً، فقد تعودت على هذه الأمور، بعد كل ما مر على رأسي من شيطنات، بالإضافة لمعرفتي المسبقة بذلك العجوز. قال: «صباحك خير يا دانيال أورورك، عساك بعافية هذا الصباح؟».

أجبته لاهثاً وأنفاسي تكاد تنقطع من قوة السقوط: «بخير يا سيدي، أشكرك على لطفك، عساك بخير أنت أيضاً؟».

فردّ: «أعتقد أنك سقطت يا دانيال».

قلت: «نعم كما ترى».

فسألني: «وإلى أين تتجه بهذه السرعة؟».

فأخبرته كيف أثقلت بالشراب، وكيف وقعت في الجزيرة، وكيف ضعت في المستنقع، وكيف جاء النسر النصاب، وطار بي إلى القمر، وكيف قابلت القمري وطردني من هناك. فقال لي: «سأنقذك يا دان. مدّ يدك وامسك بقدمي وسأطير بك إلى البيت». أجبته قائلاً: «أتمنى أن تبقى يدك دائماً بخير، وقادرة على المساعدة أيها الكريم».

ومع أنني كنت طوال الوقت أخشى خديعته، لكن لم يكن باليد حيلة، فأمسكت به من قدمه، وحلّقت خلفه مع سرب الإوز بسرعة، كأننا نقفز في الهواء. طرنا وطرنا وطرنا حتى صرنا تماماً فوق المحيط الواسع. فقد رأيت مياه رأس «كلير» عن يميني ممتدة في اليابسة. قلت له بتهذيب (فقد اعتقدت أنه من مصلحتي التحدث إليه بلباقة تحسباً للطوارئ): «أه يا سيدي أرجوك طِر بي إلى اليابسة». فردّ فوراً: «الآن مستحيل يا دان، كما ترى نحن في طريقنا الى الصحراء العربية».

فقلت: «لكن هذا مكان في بلاد أجنبية بعيدة! آه، يا سيد إوز، أنا رجل مسكين أستحق الشفقة».

فأسكتني قائلاً: «صه، صه أيها الأحمق. أصمت تماماً. الصحراء العربية مكان معتبر مثل (غرب كيربيري) تماماً، كما تشبه البيضة أختها البيضة، مع فارق بسيط هو أن الرمال أكثر بقليل هناك».

وبينما كنا نتجادل هكذا، لمحنا سفينة تعبر من تحتنا، متهادية بجمال كأنها ترقص على أنغام الريح. فقلت له: «إذن يا سيدي أيمكنك أن تنزلني على متن تلك السفينة أرجوك». فأجابني: «لسنا تماماً فوقها، فلو أسقطتك الآن لهبطت في البحر وغرقت».

فقلت: «لا، لن أقع في الماء، فلست أحمق لهذه الدرجة، أنا واثق من أنه الوقت المناسب للهبوط، فدعني أنزل الآن».

فأجابني: «سأفعل ما تريد مادمت مصراً، هيا، أنت حر الآن».

ثم أرخى مخالبه وتركني. وكم كان محقاً. فقد وقعت بالضبط في وسط الماء المالح، وغصت عميقاً نحو القاع، ثم رفعت نفسي

إلى الأعلى بقوة وإذ بي اصطدم بحوت لا يزال يفرك عينيه من النعاس. نظر الحوت مباشرة في وجهي ولم يقل شيئاً، فقط رفع ذيله ورشني بالماء البارد والمالح، حتى لم يبقَ جزء صغير مني لم يتبلل. ثم سمعت صوتاً ما، وقد كان مألوفاً لي يقول: «انهض أيها الوغد السكير، كفاك نوماً».

وهكذا استيقظت فوجدت زوجتي جودي، وبيدها إبريقاً مليئاً بالماء، كانت ترشني منه. رحمها الله. رغم كل مساوئها كانت زوجة صالحة، فلم تكن تطيق رؤيتي في حالة سكر، وتعرف كيف تداويني إن فعلت. كررت قولها: «انهض، ألم تسعك الأمكنة كلها كي تنام تحت هذه الجدران القديمة حيث تسكن العفاريت، لابد من أنه مكان مريح، ها!». نعم، حقاً كم كان مريحاً، لقد أُجبرت فيه على مرافقة النسور ورجل القمر وذكور الإوز والحيتان ويا لها من رفقة.

عفريت كيلدار[1]
باتريك كينيدي

قضى السيد «هـ. ر» معظم وقته أثناء حياته في «دبلن»[2]. لكنه اضطر إلى أن يمضي ردحاً طويلاً من الزمن في الخارج بعد أحداث العام 98[3] أوجب عليه مرة قضاء فترة طويلة خارجها. وفي أثناء غيابه اعتنى الخدم ببيته الكبير في «راث»[4] وعملوا على العناية به كأن العائلة لا تزال مقيمة فيه، ولم يعكر صفوهم سوى تلك الضجة التي يتكرر سماعها بعد انصرافهم للنوم، كارتطام باب المطبخ، وجلبة المساعير[5] وطقطقة الأطباق والأواني والأباريق.

وفي إحدى الأمسيات سهروا لوقت أطول من المعتاد، يسلون بعضهم بسرد الحكايات عن السحر والأشباح. وقد

(1) The kildare pooka عفريت كيلدار: من كتاب (أساطير السلتيين) لباتريك كينيدي، دار نشر ماكميلان (المؤلف).
(2) عاصمة آيرلندا وتعد أكبر مدينة فيها (م).
(3) المقصود انتفاضة العام 1798 التي اندلعت بداية في دبلن ضدّ الحكم البريطاني وقد نتج عنها سقوط ما بين 10 ألف و30 ألف قتيل في زهاء ثلاثة أشهر (م).
(4) Rath اسم قرية (م).
(5) المسعر: قضيب لتحريك الحطب في الموقد (م).

بقي أحد الأولاد الصغار من خدم المطبخ، الذين ينامون عادة في الإصطبل، مستلقياً على الأرض الدافئة أمام الموقد، مصغياً لتلك القصص والحكايات، وما لبث أن داهمه النعاس، فاستغرق في نوم عميق. لكن حين انصرف الجميع للنوم وخمدت نار الموقد استيقظ على صوت انفتاح باب المطبخ وحوافر تمشي على الأرض قربه. وبالفعل حين رفع رأسه رأى ما يشبه حماراً ضخماً يتثاءب أمام الموقد. فراح ينظر إليه الولد وهو يرتجف خوفاً محدثاً نفسه: «ما أتعس حظي، سأغادر هذا العالم كأنني لم أولد فيه أصلاً، فهذا المخلوق الغريب سيأكلني بالتأكيد». لكنّ الضيف ذا الأذنين الطويلتين والذيل الطويل، كان منشغلاً بأمر آخر. فقد سارع إلى تحريك الجمرات، وإشعال النار ثم أحضر دلو ماء من البئر، ملأ منه آنية كبيرة ثبتّها على النار. ثم مدّ يده أو رجله - فهما متشابهتان- إلى حيث ينام الولد أمام الموقد الحار وسحبه. زعق الولد بقوة لكن العفريت لم يفعل شيئاً سوى أن ألقى عليه نظرة وأرخى شفته السفلى كي يظهر عدم اكتراثه ثم حمله ورمى به على مقعد خشبي بالقرب من الموقد واستلقى مكانه أمام النار ينتظر غليان الماء. ولم يمضِ وقت طويل حتى لم يبقَ طبق، أو ملعقة، أو شوكة في خزانة المطبخ لم تُسحب ويُلقى بها في الماء، ثم تُغسل وتجفّف وتُعاد إلى مكانها الصحيح، وحتى

الأرضية نفسها نالت حظها من الكنس والمسح. ولو أن أفضل خادمات «دبلن» كانت تعمل في ذلك المطبخ لما أدت عملها بذلك الاحتراف والإتقان. وحين انتهى العفريت من كل ذلك جلس بجانب الولد وربّت على كتفيه وظهره، ثم جفف أذنيه فرفع واحدة، وأنزل أخرى، وكشّر عدّة مرّات. وأما الولد المسكين فكان يحاول جاهداً أن يصرخ لطلب النجدة، لكن حرفاً واحداً لم يخرج من بين شفتيه.

حرك العفريت حطب الموقد قبل انصرافه وصفق الباب خلفه بقوة اهتزت لها جدران البيت. وفي الصباح حين قام الولد بإخبار القصة للآخرين ضجّوا واستغربوا حتى إنهم لم يتحدثوا عن أي شيء سوى ذلك طوال اليوم. وكان لكل منهم رأي مختلف لكن أكثر الآراء ذكاء هو الذي أبدته إحدى الخادمات الصغيرات: «إذا كان العفريت سينظف بدلاً عنا كل ليلة هكذا، بينما نحن نائمون، فلماذا نتعب أنفسنا ونعمل بعد اليوم؟».

وردت عليها أخرى: «فعلاً، صحيح. لم تنطقي يوماً بكلام أكثر حكمة من هذا الكلام. أنا عن نفسي لن أعارضك البتة». وهكذا كان. فلم يرَ طبق واحد نقطة ماء واحدة ذلك المساء، ولم تلمس الأرض قشة واحدة من مكنسة أو خرقة من ممسحة،

وذهب الجميع إلى النوم بمجرد غروب الشمس. وفي صباح اليوم التالي وجدوا كل شيء على أفضل ما يرام، حتى إن أهم السادة لن يتورّع عن تناول عشائه إن قُدّم له على بلاطة لامعة من أرض المطبخ. مما جلب بالطبع، سعادة عظيمة للخدم الكسالى كما يمكنك أن تتصور. واستمر الحال على هذا المنوال ليلة بعد أخرى، حتى قرر الولد بحماقة، في إحدى الليالي، أن يبقى مستيقظاً ليتسامر مع العفريت. وفي ذلك المساء انفتح الباب ودخل العفريت ومشى باتجاه الموقد كما في السابق. والولد الذي أحس بالخوف في البداية، استعاد شجاعته وحسم أمره وخاطبه قائلاً: «أتسمح لي يا سيدي بأن أسألك من أنت؟ ولِمَ أنت كثير اللطف هكذا، حتى تريح كل ليلة الخادمات في هذا البيت من عمل يوم كامل؟».

رد العفريت: «بكل ترحيب بك وبسؤالك. لقد كنتُ خادماً على زمن والد الإقطاعي «ر» وكنت من أكسل الأوغاد الذين رأتهم عين، ولم أكترث لذلك قطّ. وقد عُوقبت لأجل ذلك في حياتي الحالية، بأن فُرض عليّ المجيء كل ليلة إلى هذا البيت لأقوم بكل أعمال التنظيف ثم أغادر في البرد. أتعلم، في الطقس الجيد مهمتي ليست بصعبة، لكن لو تتخيّل كيف يكون حالي

حين يتوجّب عليّ إبقاء رأسي مغروساً بين ساقيّ منذ منتصف الليل وحتى شروق الشمس، في ليلة شتوية عاصفة».

فقال الولد مشفقاً: «آه يا مسكين. كيف يمكننا مساعدتك؟».

فأجاب العفريت: «لا أعرف. لكن أعتقد أن معطفاً مبطناً بالفرو سيمنع عني الصقيع في مثل هذه الليالي الباردة».

فقال الولد بحماس: «بالطبع، ولم لا. سنكون أنذالاً وناكرين للمعروف إن لم نساعدك». وباختصار، سهر الولد في الليلة التالية بجانب الموقد حاملاً في يده معطفاً نفيساً مبطناً، قدّمه للعفريت حال وصوله. أدخل العفريت أرجله الأربعة في أكمام المعطف وزرّره عند الخصر والبطن، ومشى متبختراً سعيداً به، ثم وقف أمام الزجاج ليرى كيف يبدو عليه وصاح: «ممتاز، هذا معروف كبير لا أقدر على رده. كم أنا ممتن لك ولأصدقائك الخدم على هذه الهدية الرائعة، لقد منحتموني الدفء أخيراً».

نطق كلماته ومشى خارجاً، فصاح الولد في إثره: «انتظر، ألستَ مبكراً في ذهابك هذه الليلة؟ ألن تقوم بالكنس والشطف قبل انصرافك؟».

فرد العفريت: «آه ، أخبر الفتيات أن دورهن قد حان في التنظيف. فإن عقوبتي تنتهي عندما تُقدّر خدماتي وأُمنح مكافأة على حسن عملي. وهكذا لن تراني بعد اليوم البتة». وبالفعل لم يره أحد من الخدم بعدها، وكم أسفوا على طيبتهم مع عفريت ناكر للجميل مثله.

البانشي أو الجنية النائحة[1]
كيف قابل توماس كونولي الجنية النائحة[2]
جي تودانتر

آه يا سيدي، ماذا أُخبرك عن الجنية النائحة؟ كنتُ في طريقي ذات مساء عائداً من عملي عند السيد كاسيدي، الذي أخبرتك عنه من قبل. وبيتي الذي استأجرته عند السيدة بيدي ماجواير المحترمة، يبعد حوالي ميل أو ميلين على الأكثر عن مكان عملي. وقد حدث ذلك في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، حيث كنت أسير في طريق خال مظلم، يرتفع عند منتصفه تقريباً جسر صغير، فوق ساقية تمتد الى «دادهر»[3]. وكنت في ذلك الموضع، عندما أحسست أن المكان برمته يبدو غريباً، وكأنني أمرُ فيه للمرة الأولى، أو كأنني أراه في حلمي. شعرتُ أن رياحاً باردةً تعصف بقلبي. وقلتُ لنفسي: «ما بك يا توماس، ما الذي يجري لك؟».

(1) كلمة مركبة من بان: المرأة، وشي: الجنية. تتبع العائلات العريقة الأصل غالباً، وتنوح مصفقة بيديها معلنة عن اقتراب الموت (نذير شؤم) (المؤلف).

(2) الجنية النائحة أو بانشي في النص الأصلي وهي المرأة الجنية النائحة، مخلوق أسطوري يشبه المرأة العجوز تنوح منذرة باقتراب الموت. انظر الهامش السابق (م).

(3) موضع في آيرلندا (م)..

وقررتُ تجاهل خوفي ومشاعري الغامضة والمضي قدماً، لكن أتعلم يا سيد هاري، كنت كمن يجرّ خطواته جراً حتى وصلت نهاية الجسر، وهناك، يا ستّار، رأيت امرأة عجوزاً تظهر من شق في الجدار، تقعي على مؤخرتها مكومة جسدها بالكامل مثل كرة، حانية رأسها بأسى كمن يعاني حزناً فظيعاً. رثيت لحالها، فاستجمعت قوتي خاطبتها لها: «أتحتاجين إلى مأوى دافئ يا سيدتي؟».

لم تُجب ولم تلتفت نحوي، كأنني لم أقل شيئاً على الإطلاق، أو كأنما لم أكن موجوداً أصلاً، بقيت تحرك جسدها إلى الأمام والخلف، كأنها تهدهد نفسها، كعزاء لقلبها المحطم. وكررت سؤالي: «أأنت بخير يا سيدتي؟» وأنا أقترب منها أكثر لأربت على كتفيها، لكنني تجمدتُ فجأة، حين اكتشفت أنها تبدو أقرب إلى القِطة منها إلى المرأة العجوز. أول ما لفت انتباهي في مظهرها يا سيد هاري، كان شعرها الطويل جداً، المسترسل على كتفيها، والذي يغطي الأرض لمسافة أطول من ذراع. لم أرَ في حياتي شعراً فوق رأس امرأة، أشابةً كانت أم عجوزاً، بغرابة ذلك الشعر. وقد كان كثيفاً كشعر صبية، لكن لونه لم يكن يدل على الشباب، ومن الصعب وصفه. فأول ما لمحته ظننته رمادياً

على فضي، كشعر عجوز شمطاء، لكنه كان يلمع كالحرير، وهو منسدل على كتفيها وذراعيها كشعر مريم العذراء في الصور. والشيء الآخر الذي لفت انتباهي هو قماش عباءتها وفستانها. فلم أرَ في حياتي نسيجاً مثله. ولا حاجة بي للقول يا سيدي بأني رأيت كل هذا في لمح البصر. بعد تلك النظرة السريعة تراجعتُ للخلف خطوة، وصرختُ بصوت مسموع: «أعوذ بالله من كل شر». ولم أكد أنطق جملتي هذه، يا سيد هاري، حتى التفتت تلك المخلوقة نحوي. آه يا سيد هاري كم كانت نظرتها فظيعة كريهة، نظرة لا يمكنني وصفها على الإطلاق. شاحبة كجثة. مبقعة ببثور تشبه بثور بيض الحبش. وخيط سميك من الدمع يمتد بين عينيها الاثنتين كأنهما مخاطتان إلى بعضهما بعض لشدة ما ناحت وبكت. وأما لون عينيها يا سيد هاري فكان أزرق بارداً كلون القمر حين يشع فوق مياه المستنقع في ليلة جليدية. ومن تلك العينين خرج وميض بعثت الرجفة في عظامي، وجعل دمي يغور في عروقي، خاصة عندما غيّرت جلستها ورفعت جسدها محاولة الوقوف، فبدت شديدة الطول وأخذت تحدّق تماماً في وجهي، ثم مدت ذراعيها أمامها وأطلقت عويلاً وقف له شعر رأسي، فركضت هاربة بسرعة. ظلت تبتعد وتبتعد فوق الجسر ثم هبطت إلى الساقية تحته.

أدركتُ في تلك اللحظة حقيقتها، وقلت في نفسي: «ويحك يا توماس». وقاومت بكل طاقتي كي أحرك ساقي المعقودتين من الخوف، ولا أدري كيف تمكنت من العودة لبيتي ذلك المساء، فوحده الرب يعلم. لكنني وجدت نفسي حين أفقت على الأرض في البيت، ولابد من أني فقدت وعيي لساعة على الأقل. كل ما أذكره أن السيدة ماجواير كانت تصب شراباً في حنجرتي كي تعيدني للحياة، ورأسي غارق كله بماء يبدو أنها صبته عليّ حين تفاجأت بسقوطي. وقالت وهي تحوم حولي: «أف يا سيد كونولي. ماذا أصابك حتى ترعبني لهذه الدرجة؟».

وأجبتها بدهشة: «أما زلتُ في هذا العالم أم في الآخرة؟».

فردت: «أنت هنا في مطبخي».

فقلت: «عزتك يا رب. ظننت أنني أخيراً في «بورجاثوري»[1] ناهيك عن مكان أفظع، الفرق الوحيد أنني وجدت نفسي أتجمد من البرد ومن المفروض أنني أحترق من شدة الحرارة».

فقالت المرأة مستغربة: «ولكن ماذا حدث لك حقاً يا سيد كونولي؟ هل رأيت شبحك؟».

(1) Purgathory بورجاثوري بحيرة مقدسة في آيرلندا (م).

فأجبتها: «لا عليكِ. لن يهمك ما رأيت».

«أترى يا سيد هاري كيف قابلتُ الجنية النائحة؟».

«لكن كيف تأكدت من كونها الجنية النائحة يا توماس؟».

«آه يا سيدي، أعرف كيف أميزها جيداً من مظهرها. لكن ما صادف وقوعه من أحداث في الوقت نفسه، أكد لي حقيقتها أيضاً. فقد حل السيد أونيل ضيفاً على أحد الجيران في المنطقة. وكان مضيفه واحداً من آل أونيل العريقي النسب حقاً في مقاطعة تايرون. وحول بيته بالضبط بقيت تلك الجنية النائحة تعول لوقت طويل في تلك الليلة. وفي الصباح وجدوا الضيف ميتاً في سريره يا سيد هاري. فلو لم تكن تلك المخلوقة هي الجنية النائحة فمن عساها أن تكون؟».

مرثية

عن الآيرلندية: كلارنس مانجان

(بمناسبة وفاة السيد موريس فيتزجيرالد، فارس مقاطعة كيري[1]، الذي قتل في فلاندر عام 1642).

ترددت صرخةُ «وأسفاه» عالياً،

رثاء آلاف البشر

في عرض الشمال وطوله،

فقد مات الزعيم.

في سكون الليل أفقتُ مرعوباً من تلك الصرخة،

نظرتُ للخارج،

وارتجفت روحي بكآبة بينما ركعتُ أصلي.

فوق «لو جور»[2] في تلك الليلة

(1) أحد ألقاب نبلاء آيرلندا (م).

(2) اسم بحيرة مشهورة في آيرلندا (م).

مرة ومرتان وثلاث مرات،

خيّمت موجة حزن لفقد ذاك الشجاع،

نصف المتجمد الآن،

وانعكست على وجه القمر.

وارتفعت همهمات وتراتيل وحشية

من «أوغر»[1] الغراب الأسود،

و«موجلي»[2] المرأة الشبح،

يبكون موت «جيرالدن»[3]

ومن بعيد من سهول «كارا مونا»،

سُمعت صرخات وآهات امتدت لساعات،

أجابتها أخرى مقابلة من أبراج «فيرموي»،

(1) ogra أوجرا غراب أو مخلوق يشبهه، وهو نوع آخر من البانشي أو (الجنية النائحة) ينوح منذراً باقتراب الموت (م).

(2) Mogeely's phantom موجلي المرأة الشبح هي أيضاً شبيهة بالبانشي (الجنية النائحة)، صراخها ينذر باقتراب الموت (م).

(3) جيرالدن اسم الفارس الذي يقوم الشاعر هنا برثائه (م).

و«يوجال»، «كيينال ميكي»، و«إيموكلي»[1]،

في جوقة واحدة من البكاء والعويل،

مبددة هدوء الحياة في أودية «إنش كوين»[2] الضيقة،

من «لاج مو» وحتى «دانانور»[3] الصفراء

انتشر الخوف بين تجار «ترالي»[4]

فجمعوا ذهبهم واستعدوا للرحيل

على متن سفينة

ستمخر بهم عباب البحر ليلاً وحتى الصباح.

ومع أول أشعة مشرقة للشمس

سيسمع كل غريب بالخبر المشؤوم

وسيقول: «إنه نذير بموتنا،

وإن لم نبحر مسرعين بعيداً عن قدرنا،

---

(1) أسماء أماكن (م).
(2) اسم مكان (م).
(3) أسماء أماكن (م)
(4) ترالي: اسم بلدة في الشمال الغربي من آيرلندا (م).

سنكون كحمقى متعجرفين».

وسُمع صوت «الجنية النائحة»،

يطوّق البحر والساحل بالحزن.

فقط، لأجل السلالة الأصيلة،

تنبعث موسيقاها المفعمة بالألم،

فقط، لأجل وريث العرش المقتول،

لزعيم يستلقي بلا حركة،

صه،

مرة أخرى أسمعها، تلك الأصوات، تنتحب، وأستغرب

أهي بقربي الآن!

أم هو أنين الريح في الليل،

حين تهب في جوف الأودية الضيقة!

جنية مكارثي النائحة
توماس كروفتون كروكر

كان تشارلز مكارثي في عام 1749 الابن الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة من عائلة مكارثي الكبيرة. توفي أبوه قبل أن يكمل عشريناته، تاركاً له ممتلكات العائلة، والتي لم تكن بالشيء الكثير مقارنة بعائلات آيرلندية أخرى. وشب دون أن تقيده أنظمة صارمة، أو أب قاس، أو وضع مادي سيء، فغدا في الحادية والعشرين من عمره، شاباً خفيف الطبع، مرحاً على الدوام، قليل الانضباط والالتزام بالقيم والمثل الدارجة، وفوق كل هذا كان وسيماً، وأخشى القول إنه، باختصار، كان شاباً فاسقاً مستهتراً.

وكما يمكننا الافتراض أن صحبته التي اقتدى بها لم تكن سوى ثلة من الشبان المدللين المتحدرين من عائلات أكثر ثراء من عائلته. وعلى العموم فإن شباب آيرلندا إلى يومنا هذا، لا يعدون مثلاً في الالتزام والاستقامة، وغالباً ما جعلهم الغنى ووفرة المال ينغمسون أكثر في الأهواء والملذات التي كانت تعدّ شأناً رخيصاً

في آيرلندا. فلو أخذنا محصل الضرائب مثلاً بوجوده البغيض، ودفتره المريب في إحدى يديه، وقلمه الباتر في اليد الأخرى، وبزجاجة حبره الأسود المتدلية من خصره، لوجدناه لا يؤدي واجبه كما يجب بالتنقل من خمارة لخمارة شاجباً أو مبلغاً عن كل أولئك الذين يتاجرون بالمسكرات، والذين يفضّلون بيع الويسكي (التي لا تمت بصلة لا من بعيد أو قريب للقانون الإنجليزي سوى التملص منه) على بيع ذلك السم الكحولي المسمى «بارليامنت» المشتق اسمه من (البرلمان الإنجليزي)، كما أنه لا يكترث لسجل المخالفات المرتكبة من قبل بعض التجار والمقدم إليه من جباة الضرائب - الملائكة حماة القانون - بل يتجاهلها، ذارفاً فوقها دمعة تمحوها للأبد، إذا كان هو نفسه مدعواً لطاولة أولئك التجار، المضيافة العامرة بأصناف مُتع يُعتبر احتجازها ومراقبتها جزءاً من صلب عمله.

وهكذا فالمنافسة في السوق بين المهرّبين الذين لا يخلو عملهم من مخاطرة، وبين التجار المرخص لهم، والذين يتمتعون بحماية نسبية، جعلت من آيرلندا بلداً عائماً ليس فقط بالحليب والعسل، وإنما بالويسكي والنبيذ. وتشارلز واحد من الشبان الذين غرقوا في هذه الأجواء وهو لم يكمل بعد عامه الرابع والعشرين. وبعد

أسبوع كامل من الإفراط في الشرب والسهر، أصيب بحمى شديدة وبسبب بنيته الضعيفة أصلاً فقد بدا شفاؤه مستحيلاً. وقد حاولت أمه ردعه ونصحه في البداية ثم استسلمت واكتفت بمراقبته ينهار بالتدريج، لم يكن لها من حيلة أمام مرضه إلا السهر عليه ليلاً نهاراً، بقلب ممزق بين الشعور الأمومي بالعطف والشفقة على ولدها الغالي، وبين الاستنكار لسلوكه العابث، وقلة تقواه، رغم كل جهودها في رعايته وتوجيهه.

وقد تعاظمت خيبتها وهي تراه يكبر ليصبح رجلاً مختلفاً عن الصورة التي رغبته في أن يكون عليها. فكم صار متهوراً وطائشاً وكم ارتكب من آثام حتى لم تعد تنفعه توبة أو ندم. جلست إلى جانبه وصلّت بكل حماس لروحه كي تنجو من هلوسات الجنون والحمى، على الأقل قبل أن يواجه موته، فينال عفو السماء التي طالما أغضبها، علّه يدخلها بنفس هادئة مطمئنة. ومضت عدة أيام وحالة تشارلز لا تشهد تحسناً، لكنه بدا غارقاً في نوم عميق، أشبه بالموت، وكأن الطبيعة تعبت واستسلمت للهدوء. وقد ارتسمت على وجهه نظرة شفافة، شاحبة مثل قطعة من رخام. وبقيت عيناه مغمضتين غائرتين مطبقتي الأجفان متجمدتين بطريقة توحي بأن يداً حانية ما

قامت بإغلاقهما. وظلت شفتاه نصف مطبقتين ومزرقتين، تُظهران أكثر مما ينبغي من أسنانه فيبدو منظر وجهه المكفهر أقرب إلى وجه شبح. وقد بقي مستلقياً بلا حراك على ظهره ويداه مسبلتان عن جانبيه، وأخفقت محاولات أمه العديدة في جعله يتحرك ولو قليلاً. وأعلن الطبيب الذي عاينه يأسه، بعد تجريب كل الوسائل العلمية المعتادة لإعادة الحياة إليه، وأكد لهم أنه في طريقه لمغادرة هذا العالم. وحين هم بالمغادرة، اقترب حصانه من الباب. وكان هناك حشد متجمع عند النافذة أو منتشر هنا وهناك في أرض الدار وغالبيتهم من الأجراء والإخوة في الرضاعة وبعض أقرباء العائلة الفقراء أو من الذين جاؤوا بدافع الفضول ليراقبوا عبور إنسان مثلهم نحو الموت. احتشدوا حول الباب حين فتح. وحين لمحوا الطبيب خارجاً لحقوا به. وقبل أن يمتطي حصانه غسلوه جميعاً بتلك النظرة المتفحصة المتسائلة. لم ينطقوا بكلمة لكن غايتهم كانت واضحة، بينما ظلت يد الخادم ممسكة باللجام، كأنه يتعمد تأخير لحظة انطلاق الطبيب، وامتلأ وجهه بالترقب والقلق وهو يحدّق في وجه الطبيب الذي هز رأسه متوجهاً إليه بالقول: «انتهى كل شيء يا جايمس» ثم ابتعد ببطء.

وفي اللحظة نفسها التي نطق فيها الطبيب تلك الجملة ارتفع صوت امرأة ضخمة كانت بالقرب بصرخة رهيبة استمرت لنصف دقيقة تقريباً، ما لبثت أن تحوّلت إلى عويل متواصل، ثم امتزج صوتها بصوت شخص آخر، وهو رجل يعد بمثابة أخ لتشارلز، اندفع إلى الحشد مصفقاً بيديه تارة، وماسحاً كفيه ببعضهما بمرارة تارة أخرى. فقد كان المسكين أقرب أقرانه إليه في الطفولة، وطالما لعبا معاً، وحين شبّا أصبح خادمه المقرب وبادله حباً يعادل حبه لحياته.

أدركت السيدة مكارثي أن الكارثة واقعة لا محالة، وأن ابنها الحبيب في طريقه ليوم الحساب، ولمعرفتها بكل ذنوبه وبأنه حتماً سينال عقاباً قاسياً عليها، جلست طويلاً تحدّق في وجهه بسكون بارد، لكن خيطاً ناعماً من الشفقة والرقة تسلل فجأة إلى قلبها وجعل دموعها تنساب فوق خديها دون توقف. بقيت تحدق فيه بتلك الطريقة والدموع تنهمر من عينيها كأنها تبكي بلا وعيها أو كأنها لا تجد في نفسها الطاقة كي ترفع منديلها وتجفف دموعها، حتى ذكرها وجود الفلاحات اللواتي ينتمين لطبقة أعلى من طبقة الفلاحين العادية بما تقتضيه عادات البلاد من ضرورة إطلاق صوتها بالعويل والصراخ لتُظهِر حزنها

وتقديرها لروح الميت، فرفعت صوتها بعويل ملأ البيت كله. ثم كفكفت دموعها وانسحبت لتقوم بواجبها وإعطاء توجيهاتها حول الجنازة والمساعدة بتوزيع الشراب على المعزين، حسبما تقتضي الطقوس.

وقد قامت بكل الترتيبات اللازمة من دون أن يُسمع لها صوت، أو يراها أحد، سوى الخدم وشخص أو اثنين من المقربين للعائلة ساعداها على إنجاز مهماتها، وقد استطاعت الإشراف على كل شيء بمنتهى الدقة والانضباط. ورغم أنها لم تأتِ بأي مجهود لكبح حزنها أو عدم إظهاره، لكنها لم تسمح له بإعاقتها عن أداء مهامها، فقد أحست بضرورة استجماع قوتها وضبط نفسها في هذا الوقت بالذات، لأنها ستكون منذ الساعة مسؤولة بمفردها عن تدبير شؤون البيت. وحين شارفت الليلة على الانتصاف، وقد حلت نهنهات الحزن الصامت مكان العويل والتفجع بصوت مسموع، وبينما كانت منحنية على سريرها تصلي بلهفة، انقطع تركيزها فجأة جراء صوت غريب، وصل مسامعها من جهة الجثة.

في البداية كان مثل همهمات خفيفة، ثم اختفى تماماً، وكأن خوفاً مفاجئاً قد شلّ حركة من في تلك الحجرة، ثم انطلقت

صرخة مرتفعة مليئة بالرعب، انفجرت من كل اتجاه. وانفتح باب الحجرة على مصراعيه، فهرع كل من تنبه لصوت انفتاح الباب، صاعداً الدرج، مجتازاً غرفة السيدة مكارثي ببابها المفتوح أيضاً، والتي ركضت بدورها وانضمت للحشد المتجه الى حجرة جثمان ابنها ليجدوه جالساً في سريره، يحدق حوله بنظرات تائهة، كشخص استيقظ للتو في قبره. وجعله ذلك الشرود المرتسم على ملامحه الغائرة، إضافة لبنيته الضعيفة، يبدو مرعباً، وكأنه لا ينتمي لعالم البشر. لم تكن السيدة مكارثي امرأة ضعيفة لكنها مع ذلك لم تتحرر كلية من خرافات بلدها. فركعت أرضاً وضمّت يديها إلى صدرها، وأخذت تصلي بصوت مسموع. تحرك الكائن الجالس إلى جانبها وبالكاد نطق كلمة «أمي» وظلت شفتاه تتحركان كأنهما تحاولان إتمام الجملة التي لم يُسمع منها أي كلمة أخرى، وكأن لسانه رفض التحرك مع شفتيه. تقدمت منه وأمسكت بذراعيه وهزته قائلة: «تكلم بحق الرب والقديسين، قل أي شيء. أأنت حي يا ولدي؟».

فاستدار ناحيتها قليلاً، وخرجت الكلمات منه بصعوبة: «نعم يا أمي أنا حي، لكن اهدئي واسمعيني. سأخبرك ما سيدهشك أكثر مما تتوقعين».

واستند للخلف على وسادته، بينما بقيت هي بجانبه ممسكة بإحدى يديه، ومحدقة فيه كأنها لا تصدق ما تراه وتسمعه. أما هو فقد تابع قائلاً: «لا تقاطعيني حتى أنتهي من قصتي، أرغب بأن أحكي الآن بينما فرحي بعودة الحياة يغمرني، فمن المؤكد أنني سأتعب عما قريب، وأعجز عن الكلام. لا أكاد أتذكر الكثير من كل فترة مرضي ومعاناتي، لكنني قضيت الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة في محكمة الرب. لا تحدقي بي غير مصدقة، فما حدث حقيقي أكثر من آثامي نفسها. كما أني واثق أن توبتي صادقة هي أيضاً. رأيت القاضي الرهيب يعدد كل ذنوبي، مصغياً لنداء العدالة والواجب ومتجاهلاً نداء الرحمة. أتذكر أن كل شيء كان منقوشاً في عقلي بلغة لا يمكن فهمها لأنها خارج نطاق لغات البشر جميعها. وسألخص لك ما رأيته. لقد وضُعت في ميزان وقُرر أنه يجب احتجازي. وبينما كانت عين القاضي الكلية القدرة تحدق بي، معلنة دون كلام، نصف لعنتي، لمحت القديس، حارسي، الذي كنتِ تتوجهين إليه في صلواتك ليحميني حين كنتُ صغيراً، ينظر نحوي بعين العطف. مددتُ يدي باتجاهه طالباً شفاعته. وتوسلتُ أن أُمنح سنة أو حتى شهراً إضافياً على الأرض، لأعلن توبتي وأكفّر عن ذنوبي. فإذا بذلك القديس يرمي بنفسه عند قدمي القاضي، مستجدياً لأجل خلاصي. لا

يا أمي، لا يمكنني حتى ولو عبرتُ عشرة آلاف جيل وجيل، نسيان تلك اللحظة المليئة بالرعب، عندما كان قدري كله معلقاً فيها على قرار واحد. وانتصرت الرحمة على العدالة، ونطقت بلسان القاضي قائلة: «عُد إلى عالمك الأرضي، لكن عليك أن تنصاع لكل قوانينه. سُتمنح ثلاث سنوات لا غير لتثبت توبتك، عند انتهائها ستقف هنا مرة أخرى وتُحاكم، وسُيقرر حينها إن كنت ستنجو، أم ستضيع للأبد». ولم أسمع أو أرَ أكثر من ذلك حتى لحظة استيقاظي وعودتي للحياة قبل أن دخلتِ غرفتي بلحظات».

قال تشارلز ما قاله ثم خارت قواه، فأغمض عينيه واستلقى منهكاً دون حراك. وأما أمه، التي سبق وذكرنا أنها لا تميل تماماً لتصديق الخرافات، فقد ترددت في تصديق ما سمعته، وشكت بأن يكون كلامه مجرد هلوسات، سببها المرض. لكنها قررت تركه ليستريح دون إزعاجه بالمزيد من الأسئلة. وبعد عدة ساعات من النوم، استيقظ تشارلز منتعشاً نشيطاً، وبدأ بعدها يتعافى تدريجياً لكن بانتظام. وظل مُصراً على الرؤية التي أبصرها، ومقتنعاً بأنها حقيقة واقعة، وقد جعلها مرجعاً مهماً في حياته اليومية لتقرير عاداته ومعتقداته. وبالطبع لم يهجر دفعة واحدة حياته

الاجتماعية السابقة، لأن مزاجه ظل بعيداً عن تأثير التغيرات التي حصلت لعقله بعد تلك التجربة، فظل على صلة برفاقه القدامى، لكنه لم يشاركهم مغامرات عبثهم وإفراطهم في الشراب، وغالباً ما لعب دور المرشد والناصح، وما زلتُ لا أعرف كيف نجح في التوفيق بين عقله وقلبه. فكان متديناً دون تفاخر، ومقتصداً في شهواته دون مبالغة، مثبتاً بشكل عملي أن بإمكانه استبدال الفضيلة بالرذيلة من دون خسارة الاحترام والشهرة والسعادة.

وبمرور الوقت وقبل انتهاء السنوات الثلاث نسي قصة رؤياه تلك، وإن تذكرها فعلى سبيل السخرية من إيمانه بأمور مثلها فيما مضى. وقد استطاع بسبب انتظامه في عاداته واقتصاده في كل شيء المحافظة على صحة جيدة، لم يتمتع بمثلها قطّ من قبل. ومال في سلوكه نحو الاتزان والجدية حيث تفوق بهما على رفاقه في العديد من المناسبات حتى وصل سن السابعة والعشرين، لكن ظل دائماً مثالاً للحيوية والمرح بشكل يلفت الانتباه. وبالنسبة للرؤيا فقد بذل جهده، حين يكون محاطاً برفاقه، في تجنب أي محاولة للحديث عنها أو التصريح برأي قاطع حولها، لكنه بقي أمام عائلته ملتزماً بإيمانه بها. وحين اقترب موعد تحقق النبوءة، واكتمال السنوات الثلاث، ظهرت عليه علامات الصحة

والعافية، وأقنعه رفاقه أن يطلب إذناً من عائلته، لاستعمال عزبتهم في الريف، للاحتفال بعيد ميلاده. لكن مجريات ذلك الاحتفال والأحداث التي قاد إليها، سيعرفها القارئ من متابعة الرسائل التالية، وهي رسائل احتفظ بها بعض أفراد عائلته. أول رسالة خطتها أمه، السيدة مكارثي، إلى إحدى السيدات المقربات منها كثيراً، والتي تعيش في مقاطعة «كورك»، على بعد خمسين ميل من العزبة.

«إلى السيدة بيري، كاسل بيري

العزبة، صباح الثلاثاء، الخامس عشر من أكتوبر، 1772

عزيزتي ماري:

أخشى أنه يترتب عليّ وضع صداقتنا ومحبتك لي، موضع الاختبار. وأن أدعوكِ للقيام برحلة شاقة قد تستغرقك يومين. وبالتأكيد ستحتاجين إلى صداقة عظيمة كصداقتنا كي تتمكني من القيام برحلة كهذه. لكني أحتاج وجودك إلى جانبي. فأنت تعرفين قصة ابني. لا يمكنني الخوض في تفاصيل كثيرة، لكن أستطيع القول إنه بقدوم يوم الأحد المقبل سيحين موعد تحقق رؤيته، ولا أخفيكِ كم أني خائفة قلقة عليه، لكن وجودكِ

بجانبي يا عزيزتي ماري سيقلل من معاناتي، مثلما حدثَ عدة مرات من قبل. وسيصادف في ذلك الأحد نفسه حفل زفاف ابن أخي جايمس راين على عروسه جين أوزبورن، وستقام الحفلة هنا، رغم أن ابني توّسل إلينا بشدة أن نؤجلها ليوم أو يومين. لن أطيل أكثر وسأشرح لك المزيد عند لقائنا. فأرجو أن تتحملي فراق زوجك الطيب لمدة أسبوع واحد، هذا إن لم يدفعه تحفظه، للإصرار على مرافقتك، وتأتي إلينا مع بناتك، بأسرع وقت ممكن، قبل يوم الأحد القادم.

ابنة عمك وصديقتك إلى الأبد
آن مكارثي

ورغم أن تلك الرسالة وصلت إلى «كاسل بيري» في صباح الأربعاء، بسبب وعورة الطريق التي سلكها حامل الرسالة، واستحالة مرور عربته في كثير من الأماكن، فلم تتمكن السيدة بيري من الانطلاق مع بناتها قبل ظهيرة يوم الجمعة، بسبب ما توجب عليها القيام به من أعمال منزلية كثيرة قبل الانطلاق. وبقيت الابنة الكبرى مع أبيها لترعاه وتهتم بالبيت. وبما أن المسافرات (الأم وبناتها) كان عليهن ركوب عربة مفتوحة

يجرها حصان واحد تدعى «الجاوتنج»[1] (لا تزال مستخدمة في آيرلندا)، وبما أن الطريق يصبح موحلاً وسيئاً بشكل خاص عندما تمطر بغزارة، فقد تقرر أن يتوقفن في منتصفه، ليسترحن خلال الليلة الأولى، ثم يصلن إلى العزبة مساء السبت. لكن تم تغيير الخطة، فقد تبين أنه بسبب تأخرهن في المغادرة لن يقطعن في اليوم الأول أكثر من عشرين ميل، وبناء عليه فقد قررن النوم في بيت أحد الأصدقاء وهو السيد بوركس الذي يبعد مكان سكنه أقل من تلك المسافة عن بيتهن. وقد وصلن إلى بيت السيد بوركس بسلام بعد رحلة استغرقت الكثير من الجدال. وما حدث معهن خلال رحلتهن إلى العزبة، وما حصل بعد وصولهن هناك، مفصل في رسالة بعثت بها السيدة بيري إلى أختها الكبرى.

«العزبة، مساء الأحد، 20 أكتوبر 1752»

«عزيزتي إلين:

ستجدين طي رسالتي هذه رسالة أمي التي ستلّخص لك الأخبار المحزنة، والتي سأتحدث عنها في رسالتي بتفصيل أكثر. أعتقد أنه من الأفضل إخبارك عن الأحداث الخارقة للعادة التي مرت في اليومين الأخيرين. سرقنا الوقت مع عائلة بوركس

(1) Jaunting-car الجاوتنج عربة إيرلندية بعجلتين (م).

فسهرنا حتى ساعة متأخرة من ليلة الجمعة، وانتهى اليوم تقريباً ونحن ما نزال على بعد خمسة عشر ميلاً من هذا المكان. كان الطريق كان بطيئاً بسبب غزارة المطر في الأسبوع الماضي، مما دفع أمي لاتخاذ قرار المبيت عند أخ السيد بوركس، الذي يبعد زهاء ربع ميل عن طريقنا، على أمل أن نتمكن من تناول الفطور في العزبة صباحاً. كان النهار عاصفاً ممطراً، واكفهرت السماء بالغيوم. وفي بداية المساء ظهر القمر في بعض الأوقات واضحاً برّاقاً كأنه يضحك، بينما اختفى في أوقات أخرى بعد أن غطته غيوم كثيفة، تحركت بسرعة كأنها تنذر بعاصفة هوجاء. وأما الرياح التي لفحت وجوهنا فكانت تصفر بغموض مريب في الأسيجة المنخفضة عن جانبي تلك الطريق الوعرة والعارية تماماً من كل ملجأ يمكننا الاحتماء فيه، حيث لم تظهر لنا نبتة أو شجرة واحدة على بعد أميال.

وحين سألت أمي سائق العربة كم نبعد عن بيت السيد بوركس أجابها: «على بعد عشرة جروف تقريباً من هنا حتى التقاطع، بعدها علينا الانحراف يساراً باتجاه الشارع العريض يا سيدتي». فأجابته أمي قائلة: «حسناً يا ليري افعل ذلك إذن». ولم تكد أمي تنطق جملتها حتى سمعنا صرخة حادة أفزعتنا،

قادمة من خلف السياج عن يميننا. ولو أردت تشبيهها بأي شيء من عالمنا هذا، لقلت إنها صرخة امرأة داهمها خطر مهلك، فأطلقت تلك الصيحة المؤلمة، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. فصاحت أمي: «ارحمنا أيتها السماء. اسمع يا ليري اذهب هناك وراء السياج، ودعنا نساعد تلك المرأة إن لم تكن قد فارقت الحياة بعد. بينما نذهب نحن إلى ذلك الكوخ لطلب العون من القرية المجاورة». فرد عليها مندهشاً، ويده تلسع بالسوط ظهر الحصان بعنف: «امرأة! ليس هناك أية امرأة يا سيدتي، من الأفضل أن نتابع طريقنا حتى نصل في الوقت المطلوب». ثم واصل حثه للحصان. لم نرَ شيئاً. اختفى القمر تماماً، وأحاطت بنا الظلمة. وتوقعنا زخة من المطر، لكن بعد أن نطق ليري جملته الأخيرة وساط الحصان ثانية، سمعنا بوضوح صوت تصفيق، تبعه صراخ متواصل يحمل الألم والفزع نفسيهما الذي كان في تلك الصرخة الأولى، ورأينا مخلوقاً يركض إلى الأمام بمحاذاة السياج محاولاً اللحاق بنا. وكانت رؤيتنا لا تزال غير واضحة بعد، حتى أصبحنا على بعد عشرة أذرع تقريباً من الشارع العريض الذي يقع بيت السيد بوركس على يساره والعزبة عن يمينه، فبدأ القمر بالبروز وانقشعت الغيوم فجأة، وصرنا نرى بوضوح تام كما أرى الآن هذه الورقة أمامي. رأينا هيئة تشبه المرأة، طويلة نحيلة،

حاسرة الرأس يسترسل شعرها الطويل على كتفيها. تلبس شيئاً يشبه العباءة البيضاء أو الشرشف، مردوداً على كتفيها كيفما اتفق. وقفت على السياج المقابل حيث يلتقي طريقنا بزاوية بيت الربيع. ووجهها قبالتنا ويدها اليسرى تشير إلى هذا المكان، واليد اليمنى تلوح بسرعة وعنف، كأنها تريد تحويل مسارنا إلى جهة اليمين. توقف الحصان فزعاً من الظهور المفاجئ لتلك المرأة، التي كانت لا تزال تطلق صرخات حادة مفعمة بالحزن والشكوى كأنها تنوح.

وبعد زهاء نصف دقيقة اختفت عن أنظارنا لبرهة، ثم بعدها رأيناها تقف على جدار مرتفع، قريب من الشارع العريض الذي كنا في طريقنا لاجتيازه، وكانت لا تزال تشير إلى العزبة، لكن هذه المرة، كأنها تأمرنا بحزم أن نتوجه إلى هناك، وإلا ستعترض طريقنا. وخلال ذلك صمتت، ملتفة تماماً بثوبها أو عباءتها. قالت أمي: «توجه للعزبة يا ليري وليحرسنا الله، فلن نخالف إرادته وما هو مقدر علينا». فرد ليري: «لكنها الجنية النائحة يا سيدتي، وأُقسم أنني ما كنت لأذهب لأي مكان آخر سوى العزبة، لولا خشيتي من أن سوءاً سيصيبنا لو تابعنا تقدمنا، وإلا لما أرسلتنا الجنية النائحة إليها». قال ليري ذلك لكنه انصاع لأوامر

أمي، وعندما انعطفنا عن يمين الطريق سحب القمر فجأة ضوءه، ولم نعد نرى ذلك الشبح، لكن بقينا نسمع صوت تصفيقه، الذي صار يخفت بالتدريج كأنه قادم من شخص بدأ يستسلم ويتراجع. وانطلقنا بسرعة على قدر ما سمحت لنا وعورة الطريق وحالة الحصان المسكين المنهك، ووصلنا العزبة تمام الحادية عشر مساء الأمس. ولابد من أن رسالة أمي أخبرتكِ عن المشهد الذي كان في انتظارنا لحظة وصولنا، ولكي أشرح ما حدث بالتفصيل علي العودة إلى بعض التحولات التي وقعت هنا خلال الأسبوع الماضي. كما تعلمين فإن جين أوزبورن ستزف اليوم إلى جايمس رايان، ولأجل هذا اجتمعت العائلات والأصدقاء هنا منذ أسبوع. ويوم الثلاثاء الماضي، وهو اليوم نفسه الذي أرسلت فيه ابنة عمنا مكارثي تطلب حضورنا، وقبل العشاء انطلق الجميع في نزهة بين الحقول. ولسوء الحظ صادفوا بالقرب مخلوقة بائسة يبدو أن جايمس رايان كان على علاقة غرامية بها، ثم انفصل عنها منذ عدة أشهر، ومن الواضح أنها قد أمضت عدة أيام قبل مجيئهم تتجول في العراء، حتى صارت رثة الهيئة تثير الشفقة. ويقال إنه غرّر بها، ووعدها بالزواج ثم تخلّى عنها. وهكذا فقدت المسكينة صوابها من إحساسها بالخجل والخيبة والغيرة. وطوال ظهيرة يوم الثلاثاء ذاك، ظلت تدور في الحقول الملاصقة

للعزبة، ملتفة بعباءتها، تاركة رأسها نصف مغطى، وقد حاولت تفادي اللقاء أو الحديث مع أي من أفراد العائلة. وكان تشارلز مكارثي أثناء النزهة، يمشي بين جايمس رايان وشخص آخر، مبتعداً قليلاً عن الآخرين، فوق ممر مغطى بالحصى بمحاذاة أيكة صغيرة. وفجأة سمعت المجموعة صوت عيار ناري، آتٍ من بين أشجار الأيكة، حيث كان يسير، وحين وصلوا إليه وجدوه مصاباً بجرح في ساقه. وبالصدفة كان واحد من فريق المتنزهين طبيباً، فقدم الإسعافات الأولية اللازمة مباشرة له، معلناً بعد الفحص أن الإصابة سطحية، لم تطل العظام، وأنه سيتعافى خلال أيام قليلة. فقال له تشارلز: «علينا التأكد من كلامك قبل يوم الأحد». ثم حملوه إلى حجرته وسهر إلى جانبه بعض الأصدقاء جزءاً من تلك الليلة. وتبيّن بعد ذلك أن الطلقة كانت موجهة إلى جايمس رايان، وأن تلك الفتاة المسكينة التي تحدثت عنها قبل قليل هي من أطلقها. وقيل إنها بعد إطلاقها للنار، ركضت في الحقول متجهة إلى بيتها وهي تغني وتضحك، صائحة بجنون: «أخيراً قتلته، أخيراً قتلت السيد رايان». وعندما علمت بأنها أخطأته، وأصابت تشارلز بدلاً منه، أصيبت بنوبة غضب شديد، وحاولت الهرب والتملص من الحشد المتحلق حولها، لكنها أخفقت، وقاموا بتكتيفها وجرها إلى هنا، وهذا ما رأيناه لحظة

وصولنا العزبة. لم تشكل إصابة تشارلز الخفيفة أي عائق أمام المضي قدماً في التحضير لمراسيم العرس الذي سيقام يوم الأحد، لكن ليلة الجمعة ازداد مرضه وأصيب بالحمى، ويوم السبت (أي ليلة الأمس) صباحاً، ازدادت حالته سوءاً، وطلب رؤية الطبيب مجدداً. قدم طبيبان وجراح للكشف عليه حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً، ثم أعلنوا الأخبار الفظيعة، بأنه قد يفقد حياته خلال أربعة وعشرين ساعة ما لم يحدث تغيير مفاجئ ما. وتبين أن الضماد كان يضغط على الجرح بشدة، مما سبب له التهاباً مميتاً. ويبدو أن تشخيصهم كان صحيحاً، فلم يحدث أي تحسن يذكر في حالته، وبدا أنهم قد يئسوا تماماً من شفائه قبل وصولنا إلى العزبة. ما شاهدناه لحظة وصولنا حري بكسر قلب الشيطان ذاته من الشفقة. سمعنا بشكل مختصر حين وصولنا أن السيد تشارلز على فراش الموت، وقد أكد لنا الخادم ذلك حين دخولنا البيت. وعلى الفور قابلنا الصراخ والعويل الصادر من الدرج. ظنت أمي أنها سمعت صوت صديقتها المسكينة السيدة مكارثي، فاندفعت تبحث عنها، ولحقنا بها، وفي منتصف الدرج تقريباً اصطدمنا بشابة مضطربة تجاهد لتخليص نفسها من خادمين يحاولان بمشقة تكتيفها وإبعادها عن السيدة تشارلز، وكانت تستلقي بوضعية هستيرية على الدرج. اكتشفتُ فيما بعد أن

تلك الشابة هي نفسها الفتاة المسكينة التي ذكرتها من قبل، وقد كانت تجاهد للوصول إلى أم تشارلز لتطلب عفوها وعفو تشارلز قبل رحيله إلى العالم الآخر واتهامها بقتله أمام الله.

وقد كانت تبعثر كلماتها بجنون، فمرة تتهم رايان بأنه هو القاتل، ومرة تطلب صفح تشارلز، ومرة تتهم نفسها ورايان بالقتل، وآخر كلمات سمعتها تنطق بها حين سحبوها بعيداً كانت: «جايمس رايان أنت قتلته، أنا لم أقتله، جايمس رايان أنت القاتل، أنت القاتل، أنت القاتل». سقطت السيدة مكارثي بينما كانت تصحو من نوبتها، بين ذراعي أمي اللذين هدهداها وأراحاها. وهناك ذرفت دمعتها الأولى منذ وقوع الحادث كما سمعتُ. ثم صحبتنا لغرفة تشارلز الذي رغب برؤيتنا حال وصولنا (حسب قولها)، وقد تمنى أن نشاركه صلواته وتأملاته قبل الموت. وجدناه هادئاً متزناً وحتى مرحاً كأنه يتعامل مع موته كلعنة مسلطة عليه، منذ زمن بعيد، لا سبيل لتفاديها. فقام بتوديعنا كمن يودع أصحاباً لمدة قصيرة فقط، يغيب خلالها في رحلة سهلة وممتعة ثم يعود. وودعناه بدورنا بحزن وتفاؤل معاً، كأننا سنعود ونراه ثانية. أما المسكينة السيدة مكارثي .... واستُبعدتُ عن المكان. فيبدو أنه حدث بعض الاهتياج والغضب بين أفراد العائلة، ربما ...».

الرسالة هنا في الأعلى تُركت هكذا دون أن تكتمل. ولكن الرسالة الأخرى التي جاءت برفقتها، روت الأحداث باختصار، وكان ذلك آخر ما سمعتُه من عائلة مكارثي. فقبل غروب شمس ذلك اليوم، أي عيد ميلاد تشارلز السابع والعشرين، غادرت روحه عالمنا هذا في طريقها إلى خالقها.

الأشباح[1]

حلم

وليام آلينجام

سمعتُ نباح الكلاب في ليلة مقمرة،

فهرعتُ إلى النافذة.

كل الأموات الذين عرفتهم يوماً،

جاؤوا يمشون فرادى أو أزواجاً.

ساروا وساروا في خط امتد

(1) الأشباح: يسمون في آيرلندا ثيفشي أو تاش. وتقول الأساطير والحكايات إنهم يعيشون في عالم وسط بين عالمنا وبين الموت، محتجزين هناك بسبب عمل أو واجب لم يكملوه على الأرض قبل موتهم، أو لعنة مسلطة عليهم أو على غيرهم يجب تحقيقها (سأسكنك، أو إنه مسكون، جملة شائعة الانتشار والاستخدام للدلالة على أن هذا الشخص أو ذاك مطارد من قبل شبح ما، أو سيطارد بإلقاء تلك اللعنة عليه) ويقال إن أولئك الذين يموتون فجأة مؤهلين لأن يصبحوا أشباحاً تسكن في مكان ما وتقوم بمحاولة لفت انتباه الأحياء عن طريق تحريك الأثاث أو القيام بأفعال معينة. ويقال أيضاً إن الأطفال أكثر عرضة من غيرهم للخطف أو ليكونوا محط أنظار الأشباح، كذلك قد ترجع أرواح الميتين أو أشباحهم على هيئة حيوانات أو حشرات كالفراشات مثلاً، فلو شوهدت فراشة تحوم حول جثة قبل الدفن فهذه إشارة (كما تقول الأسطورة) على أنها روح الميت وربما دليل على دخولها في سعادة أبدية (المؤلف).

من أول البلدة لآخرها.

كأنهم يولدون من ضوء القمر هنا،

ويموتون في الظل الكثيف هناك.

رفاقي في المدرسة،

يخبطون الأرض بانتظام.

تذكرتُ حين لعبنا لعبة الجنود مرة

لكنهم أكثر رصانة الآن،

وذلك أغرب ما رأيت،

لأني أعرف مصيرهم المؤسف بالضبط،

ففي قعر البحر اللعين ظلوا نائمين

بعضهم ما زال شاباً، مستقيم الظهر بهي الطلعة،

وبعضهم محنيّ الظهر ضعيف.

بعضهم كنتُ أحبُ وأثرثر في صحبته،

وبعضهم التقيته مرة فحسب في باحة الكنيسة.

وبعضهم لم أعرف بموته أصلاً.

حشد طويل جداً من بشر وحيدين.

واحدة فقط،

فقط واحدة، رفعت رأسها ونظرت إليّ.

تمهّلت برهة - لكن لا يمكنها أن تبقى-

كم من الوقت مرّ علينا منذ آخر مرة تلاقينا،

ورأيت وجهها الشاحب الجميل؟

آه يا أمي الغالية،

هل لي أن أريح رأسي على صدرك دقيقة واحدة فقط،

بينما يدك تضغط على وجنتي المغسولتين بالدموع؟

مضوا، ومضوا.

مثل جسر يتحرك فوق ساقية من ضوء القمر.

مضوا،

من ظل لظل.

من شاب لعجوز،

من امرأة لرجل،

من واحد منسي، وآخر خالد في الذاكرة.

يطلقون ضحكة مرة في البداية،

تتلوها دمعة،

ثم موسيقى كلها بهجة وسمو.

كل صباح،

يوماً بعد آخر

أجاهدُ كي لا أنسى.

غريس كونور
ليتيشيا ماكلنتوك

عاشت غريس كونور مع زوجها تادي في كوخ بسيط موحش حتى في أيام الصيف، قرب مستنقع كبير إلى جوار أبرشية[1] «كلونديفادوك»، حيث يصلهما صوت الأمواج المتلاطمة من ساحل المحيط الأطلسي، وتلسعهما الرياح القارسة القادمة من جبال «موكيش» في الشتاء، محاطين بجيران أفظاظ، ويقيمون في كوخ بسيط، موحش حتى في أيام الصيف. وكان تادي يعمل في الحقول بينما تساعده غريس في تأمين مصروف العائلة من خلال عملها كبائعة متجولة. فتحمل سلتها المليئة بالأقمشة والأنسجة وما شابه لتدور بها من قرية لقرية، حيث من النادر ذهاب الناس للتسوّق، في البلدة أو المدن الكبيرة، وكل ما يحتاجون إليه تقريباً يجدونه في تلك السلة. تدخل بيوتهم فيرحّبون بها، ويوسعوّن لها بسرعة مكاناً فوق طاولاتهم لتفرد بضاعتها. وبمرور الوقت

(1) الأبرشية: مثل قرية صغيرة كاملة، لها حقولها ومزارعها وكنيستها، وأتباع يقيمون فيها ويخدمون كنيستها (م).

اكتسبت ثقة زبائنها، وكذلك المتاجر المعروفة مثل «لاتيركيني» أو «راملتون»، التي تكلّفها ببيع منتجاتها على أن تتقاضى نسبة معينة. وعند عودتها للبيت لم تكن تخلو سلتها من هدايا صغيرة لأطفالها. وإن صادفتها إحدى الجارات عائدة في طريقها، قد تستوقفها قائلة: «يا عزيزتي غريس خذي شريحة الفطيرة بالزبدة هذه لأطفالك الصغار». أو تقول لها: «خذي نصف دزينة البيض هذه للبيت، فحملك ثقيل وعائلتك كبيرة». وأما صغرى أولادها فتستقبلها زاحفة، ثم تغمس يدها في سلتها باحثة عن هديتها. لكن من المؤسف أن حياتها انتهت فجأة بموتها إثر مرض غريب ألمّ بها، ولم يدعها تعيش أكثر من ساعات معدودة. فأقام لها زوجها جنازة لائقة، على قدر ما سمحت به ظروفه المادية. وفي الليلة نفسها، بعد دفنها، وبينما كان جالساً في سريره، رآها تعبر الغرفة باتجاه سرير ابنتهما الصغرى. صلى صلاة سريعة ثم غطى وجهه بالبطانية، وحين كشف عن وجهه لينظر وجد أن شبحها قد اختفى. وفي الليلة التالية، رفع طفلته من سريرها ووضعها إلى جانبه في سريره، آملاً في عدم ظهور الشبح مرة أخرى. لكن غريس ظهرت وانحنت من فوقه لتغطي الطفلة. شهق تادي بذعر قائلاً: «غريس يا امرأة لماذا رجعتِ؟ ما الذي تريدينه مني؟».

أجابه شبح غريس بعدم اكتراث: «لا شيء يا تادي، فقط أريد إعادة الصغيرة إلى سريرها، أنت تخافني، لكن أختي روز لا تفعل، قل لها أن تأتي لملاقاتي غداً عند الجدار القديم». وكانت روز تعيش مع أمها على بعد ميل تقريباً، لكنها أطاعت وصية أختها من دون خوف أو تردد، وجاءت لمقابلتها في الوقت والمكان المحددين. فبادرتها قائلة: «يا أختي العزيزة روز، لن يرتاح بالي قبل أن أطمئن على تلك الشالات في السلة. فقد دفعت لي ماتي هنتر وجين تاجارت ثمنها مقدماً، ومرت ثمانية أيام على موعد التسليم، أعطهما إياها غداً في الصباح. وكذلك العجوز موسي مكوركيل أعطتني ثمن معطف من الصوف، وهو موجود في أسفل السلة. والآن يمكنني أن أمضي لأستريح. وداعاً يا أختاه».

وحين رأت أختها المخلصة روز وجهها الحبيب يبتعد، وصوتها الغالي يتلاشى، صرخت في إثرها: «غريس، غريس، ابقي ولو للحظة قصيرة أرجوكِ، غريس يا غالية ماذا عن تادي والأولاد؟». لكن عبثاً، فلا البكاء ولا الدموع، كانت لتوقف تلك الروح التواقة للراحة.

أسطورة تايرون[1]
إيلين أوليري

ثلاثة أطفال

حول الموقد العاري

وحيدين في البرد القارس

يحتمون ببعضهم بعض.

خصل الشعر الذهبي المعقودة دوماً

في جدائل لامعة،

تراها الآن كتة شعثاء

فلا أحد يمشط شعر الصغيرة أو يربّت كتفها.

تبكي فتسيل ساقية دموع على الخدين الصغيرين:

«أريد ماما، آه، أريد ماما».

(1) Tyrone تايرون مقاطعة في الجزء الغربي من شمال آيرلندا(م).

تحضنها أختها الرقيقة إيلي،

وتمسّد شعرها الذهبي قائلة:

«يا مسكينتي الصغيرة،

أمنا ماتت،

وبابا خبله السكر،

تعال إلينا أيها الملاك المقدس

وخذنا بعيداً.

إيلي وإيدي تبكيان في الخارج،

والرياح الغربية تئن وتعصف».

وفي لحظة واحدة يصمت الجميع،

لا تُسمع إلا شهقة فرح صغيرة من ويلي،

فالسقف لم يعد فارغاً وعارياً كما كان،

وأمهم بثيابها الدافئة الناعمة، تقف هناك.

تحلقوا من حولها، تعلقوا بثوبها،

أمطرت عليهم قُبلاتها،

وبلمساتها الحانية الرقيقة

سرحت شعورهم.

وإلى صدرها الحنون ضمت أصغرهم

وهدهدته.

لا حاجة إلى المعاطف بعد الآن،

فنيران الموقد ارتفعت فجأة،

أوليست هذه الجنة بالنسبة لايلي وإيدي!

فأصابع الأم من حولهما تهدهدهما

حتى تناما في كرسي القش،

حدقتا لبعض الوقت ثم غفتا بهدوء،

كما تضم الوردة بتلاتها.

اختفى الخوف،

وها هما ثانية غارقتان في الحب.

تتمتمان بسعادة: «ماما هنا معنا».

وضعتهما بلطف في السرير،

لفتّهما بالأغطية،

فبدتا مستغرقتين في الفرح.

بعدها مضت روح الأم،

حين ذكرها صوت الديك العالي،

بضرورة الرحيل،

وتسلل زوجها السكير عائداً إلى البيت.

الخروف الأسود[1]

ليدي وايلد

من العادات المتبعة منذ القدم، عند قيام شخص بدلق الماء أثناء الليل، أن يصيح بصوت مسموع قائلاً: «حذار الماء». أو حرفياً كما يقول الآيرلنديون: «أبعد نفسك عن الماء»، وذلك مراعاة للاعتقاد السائد أن أرواح الميتين منذ عهد قريب، تستمر في التجول بالقرب، ومن الخطر إلقاء الماء عليها. وفي إحدى الليالي المظلمة قامت امرأة بدلق دلو كامل من الماء المغلي، من دون النطق بتلك الجملة المحذرة للأرواح، فُسمعت على الفور صرخة كأنها قادمة من شخص يتألم، لكن لم يظهر أحد. وفي الليلة التالية دخل خروف أسود بيتها، وكان ظهره محروقاً، واستلقى أرضاً بالقرب من الموقد، وأخذ يتأوه حتى مات. فأدرك الجميع أنه تلك الروح التي احترقت بالخطأ على يد المرأة. حملوا الخروف الميت ودفنوه. لكن في الوقت نفسه من كل ليلة، كان الخروف ذاته، بظهره المحروق، يدخل البيت، ويستلقي عند الموقد، يتأوه، ثم يموت. وبعد تكرار هذا عدة مرات، طلبوا مساعدة

(1) اسطورة آيرلندية قديمة (المؤلف).

القس. وبفضل قوة رقاه[1]، وتعاويذه، استراحت روح الميت، ولم يعد الخروف الأسود للظهور، كما لم يجدوا جثته في القبر حين نبشوه، مع أنهم وضعوه بأيديهم، هناك عميقاً في الأرض، وأهالوا عليه التراب بأيديهم.

(1) رقى جمع رقية: تعويذة (م).

أغنية شبح
ألفريد برسيفال جريفس

الجميع يحلمون،

لكن باستين باور

لم تنم بعد.

ضوء شعّ من عِليتّها،

خطوة ثقيلة توقفت عند بابها،

ويد غليظة قبضت على مزلاجها.

قالت: «من يجرؤ ويغامر بدخول كوخي

دون استئذان، في هذه الساعة المتأخرة؟».

«افتحي لي يا عزيزتي باستين،

أنا حبيبك، ولا أحد سواي، سترين».

«لكن حبيبي طويل وشجاع،

يعيش في المنفى، خلف الموجة الغاضبة».

«جسد حبيبك نائم في نعشه،

لكن روحه المخلصة، جاءت تزورك»

« لكن نظرات حبيبي مبهجة،

وصوته مرح سعيد،

أما كلامكَ فيخيفني،

ووجهكَ رمادي حزين،

وعيناك زرقاوان باردان

لكن باتريك، باتريك،

وأسفاه،

بلى إنكَ هو».

قبل طلوع الفجر،

سَمعت في الأسفل، خفق أجنحة الديكين،

للصياح كانا مستعدين،

«آه. صه. صه. اسكتا أنتما الاثنان،

وإلا أخفتما حبيبي،

فيهرب مني.

آه. اصمتا أنتما الاثنان،

و إلا تركني حبيبي وعاد لرفاقه الموتى.

إن توقفتما عن شد شبحه للقبر،

سأتوّج عرفيكما بالذهب.

الجميع يحلمون،

إلا باستين باور،

انسلّ ضوء من عليتها.

وعندما استيقظوا في الصباح،

عرفوا ما حدث:

لقد انكسر قلبها.

الولد المُشعّ
السيدة كرو

كان الكابتن ستيوارت - الذي حمل لاحقاً لقب اللورد كاسليريج[1] - مولعاً في شبابه بالرياضة والصيد. ومرة أضاع طريق عودته، بعد أن غفل عن مرور الوقت بانغماسه في الصيد. وتصادف أن كان الجو عاصفاً ماطراً، فتوجّب عليه إيجاد ملجأ يبيت ليلته فيه.

وهكذا صادف بيتاً لأحد السادة، فوقف أمام بابه ينتظر أن يؤذن له بالدخول بعد أن عرّف الخادم بنفسه، ولأن الإيرلنديين مشهورون بكرم الضيافة فقد استقبله صاحب البيت بالترحاب معتذراً عن أي تقصير، متمنياً لو كان بالإمكان منحه المزيد من وسائل الراحة، فقد تصادف أن بيته مزدحم بضيوف وصلوا من قبل، أو في الليلة نفسها، باحثين مثله عن ملجئ. وهكذا بادر المضيف على الفور إلى استدعاء خادمه ليصب الشراب للضيف الجديد بعد أن رافقه بنفسه إلى مكتبه الفخم ريثما

(1) اللورد لقب يوحي بمكانة اجتماعية مثل نبيل، وهو أعلى من لقب كابتن (سنرى أهمية هذا التفصيل في نهاية القصة- م).

يرتّب له مكاناً للنوم. فقد كان أرملاً وليس من سيدة في المنزل لتهتم بمثل هذه الشؤون.

وبالفعل وجد الكابتن ستيوارت المنزل غاصاً بالضيوف الذين كانوا يمرحون ويسرحون كأنهم في حفلة. ودعاه مضيفه للبقاء واعداً إياه إن أخّر رحيله عدة أيام، بأنه سيكون باستطاعته الاستمتاع معهم بمباراة للرماية، مما أسعده وأشعره كم أنه محظوظ بعثوره على ملجأ كهذا.

وبعد أمسية حافلة بالسمر والمرح، أوى الجميع إلى النوم، وقاده الخادم إلى غرفة كبيرة عارية من الأثاث تقريباً، باستثناء موقد تتوهج النار فيه، وصندوق يحوي بعض الأغطية والملابس القديمة، ومع ذلك بدت كالجنة في عينيه المنهكتين من الرماية والسهر. وقبل دخوله السرير، فكر أنه من الأفضل أن يقلّل من كمية الحطب في الموقد، فقد رأى ألسنة النار ترتفع ممتدة إلى جوف المدخنة بشكل يوحي بالخطر. وبعد أن فعل ذلك تمدد على السرير وأغفا. ولم تمض عدة ساعات، حتى استيقظ فجأة على شعاع قوي اخترق الغرفة، اعتقده في البداية منبعثاً من الموقد، لكن حين التفت إلى هناك وجد النار مطفأة، ففكر بأنه ضوء قادم من المدخنة نفسها. وما إن اعتدل جالساً في سريره

محاولاً اكتشاف سر ذلك الضوء، حتى رأى جسد ولد عار جميل يظهر أمامه فجأة، وقد أحيط بهالة مبهرة.

نظر الولد إليه بجدية، ثم تلاشى بالتدريج، وحلت العتمة مكانه. ولأنه لا يؤمن كثيراً بقصص الأرواح، فلم يتبادر لذهنه إلا افتراض واحد، هو أن ما رآه ليس إلا مزحة سمجة من مضيفه أو من الضيوف الآخرين، بهدف إخافته. وبناء عليه شعر بالنقمة والغضب من ذلك التمادي الذي وصل حدّ الوقاحة، فأعلن في الصباح امتعاضه ورغبته في المغادرة في الحال. حاول مضيفه تذكيره بوعده في البقاء حتى موعد الرماية لكنه اعتذر ببرود مما جعل المضيف يشك في الأمر، وينفرد به مصرّاً على معرفة الأسباب. فأعلن له، من دون الخوض في التفاصيل، بأنه وقع ضحية مزاح ثقيل ليلة الأمس، وأنه لا يحتمل أو يتوقع صدوره من غرباء أو من أناس بالكاد يعرفهم.

لكن المضيف جادله بأن ما يدّعي حدوثه شبه مستحيل بين أناس لبقين كضيوفه، وهو سلوك أجدر بشبان طائشين، ومع ذلك طلب من ضيوفه الاعتذار له فأنكروا جميعاً أن يكون أي منهم قد أساء إليه بأي طريقة، وفجأة خبط المضيف جبينه بكفه كأنه تذكر شيئاً لم يخطر بباله من قبل، فرن الجرس طالباً

حضور الخادم وسأله حين جاء قائلاً: «هاملتون، في أيّ حجرة نام الكابتن ستيوارت أمس؟».

فأجاب الخادم: «كما تعلم يا سيدي فإن جميع غرف البيت مكتظة بالضيوف حتى إن بعضهم نام على الأرض، وقد اشترك أكثر من ضيف في غرفة واحدة، فأعطيته غرفة الولد، بعد أن أشعلت ناراً قوية في الموقد كي أمنعه من الظهور».

فقال المضيف: «لقد أخطأت بفعل هذا، ألم أصدر أمراً قاطعاً بعدم وضع أي زائر هناك، وقد أخليت الغرفة من الأثاث لأتأكد من عدم استعمالها على الإطلاق؟».

ثم شرح المضيف قصة تلك الغرفة لضيفه واعتذر منه أشد اعتذار للمصير الذي سيلاقيه بسبب ما حدث. فقد صار من المُسلّم به عبر السنين أن كل من قُدر له رؤية ذلك الولد المُشِع، سيحظى بأعلى المناصب، وعندما يصبح في ذروة غناه وقوته يموت موتاً شنيعاً. ثم ختم المضيف كلامه مؤكداً بأن السجلات المُحتفَظ بها لظهور ذلك الولد، تثبت ذلك.

قدَر فرانك مكينا
وليام كارلتون

عاش مكينا على سفح إحدى الهضاب الجبلية التي تفصل مقاطعة «تايرون» عن مقاطعة «موناجان». وكان له ولد مولع بمطاردة الأرانب التي تعيش في المناطق المثلجة، وقد اعتاد ممارسة هوايته تلك في أيام الأحد، إن سقط الثلج. لكن مكينا لم يكن يتقبل تلك الهواية بصدر رحب، وأكثر ما أزعجه أن ابنه يخرق قدسية ذلك اليوم ليمارس فيه هوايته الغريبة بدلاً من العبادة. أما الولد فرغم كونه مسالماً هادئ الطباع عادة، لكنه أظهر لمكينا عناداً شديداً فيما تعلق بهذا الأمر، ولم يمتثل لنصائحه واستمر في ممارسة هوايته كلما سنحت له الظروف.

وحدث أن تساقطت ثلوج غزيرة في أحد صباحات عيد الميلاد، وكان ذلك عام 1814، حسبما أظن، وبدلاً من أن يتجه ابن مكينا للكنيسة، حمل عصاه التي تشبه مذراة القش أو الهراوة، واستعد للانطلاق لممارسة أحب التسالي إلى قلبه. وما إن رآه مكينا يفعل ذلك حتى غضب وطلب منه بصرامة أن يلتحق به في الكنيسة ليصليا معاً. وبما أن حب الابن للرياضة واللهو يفوق

حبه للدين، فلم يكترث لنصيحة أبيه، مما أغضب الأب بشدة، وجعله خلال فورة غضبه وإحساسه بالخيبة والضعف، يركع أرضاً ويدعو ألا يرجع ابنه من رحلة الصيد إلا جثة هامدة.

ورغم أن تلك اللعنة بدت عديمة الرحمة والشفقة، خاصة أنها خرجت من فم أب، وهي جديرة بجعل قلوب الكثيرين ترتجف، لكنها بدت سخيفة في نظر الابن الذي أجاب بأنه سواء عاد سالماً أم لا فإنه لن يتراجع عن قراره في الذهاب. وهكذا فعل. وقد رافقه عدة شبان من الحيّ. ولست هنا في صدد التقرير إن كانت رياضتهم تلك نافعة أم لا، فكل ما أعرفه أنهم مضوا في رحلتهم حتى رأوا أضخم أرنبة أبصرتها أعينهم من قبل، وذلك بعد أن يوشك يومهم على الانتهاء تقريباً.

أخذت تلك الأرنبة تتقافز أمامهم قليلاً هنا، وقليلاً هناك، كأنها تقودهم خلفها كلما أرغمتها العصي على الهبوط إلى مكان ما. ثم تبيّن لهم أخيراً أنها قادتهم إلى موضع جبلي كانوا يحاولون إبعادها عنه لكنهم فشلوا. وبحلول المساء بدأ أصحاب الشاب مكينا يدركون عبث الاستمرار في تلك المطاردة التي ستعرضهم لخطر الضياع في حال حدوث عاصفة، خاصة أن العتمة بدأت ترخي سدولها، فقرروا العدول عن تلك المطاردة والعودة إلى الديار.

لكن الشاب مكينا رفض الانصياع لرغبتهم قائلاً لهم: «عودوا وحدكم إن أردتم، أما أنا فلن أغادر هذه الجبال قبل أن أحمل تلك الأرنبة معي».

توسلوه ورجوه التراجع عن قراره والعودة معهم، لكن دون جدوى. وقد تصرف كأنه واقع تحت تأثير قوة غير طبيعية تقوده نحو هلاكه ولا يستطيع الفكاك منها. وحين يئسوا من محاولة إقناعه انصرفوا عائدين، بينما ظل هو يركض خلف الأرنبة التي كانت توجهه تماماً إلى قلب الجبل. وفي الوقت نفسه هبت عاصفة ثلجية، كانت من أقوى العواصف التي مرت على البلاد منذ زمن بعيد، نتج عنها الاعتقاد بضياع الشاب مكينا المعتد بنفسه بمقدار تمرده على التزاماته الدينية وعصيانه لأبيه.

حين هدأ الجو قليلاً، نظّم الجيران فريقاً للبحث عن جثته، لكن كثافة الثلج المتساقط جعلت من تتبع إثره ضرباً من المستحيل. فأينما التفتوا، لم يبصروا سوى الكثبان البيض، ولم يتمكّنوا من العثور على أي أثر أو علامة تدلّ إلى مكانه. وبعد أسبوع من البحث اليومي، لم يعثروا عليه، حتى جاء وقت ذاب الثلج فيه فوجدوا جثته على الثلج، وقد استلقى على وجهه في منتصف دائرة كان قد رسمها حول نفسه بعصاه، أمام فمه مباشرة كتاب

صلوات، وعلى رأسه قبعة يبدو أنه قد حاول شدها للأسفل لتغطي وجهه والكتاب معاً.

ولا حاجة بنا إلى القول إن الظروف التي خرج فيها ذلك الشاب من بيت أبيه جعلت من اختفائه نبأً مؤثراً بصورة استثنائية في أنحاء البلاد كافة، وهكذا أضيفت بعض المبالغات والتخيلات للقصة فمنهم من زعم أنه تمكن من عبور الجبال وأنه شوهد حياً في مقاطعة موناجان، وبعضهم ادعى بأنه رآه في «كلونس» في مقاطعة «إيميفال» في بلدة صغيرة على بعد خمسة أميال، لكن على الرغم من كل هذه التقارير المتناقضة فإن الحقيقة الكئيبة ظهرت بظهور الجثة.

وحدث أن كان البيت المجاور لمكان ظهورها لرجل يدعى دالي، على ما أظن، وكان يتولى رعاية قطعان الطبيب بورتر. وهذا البيت يبعد قرابة ميلين عن أي منطقة مأهولة، وهو رث بصورة لا تصدق، ومحاط بمكان معتم بائس لرمي القمامة. وأعتقد أنهم استخدموا باب هذا البيت حين حملوا الجثة للقرية. وقد كانت تلك العائلة مع عائلات أخرى ممن راقبوا موكب حمل الجثة الحزين. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ظروف ذلك الموت، فإن ما حدث سيترك في نفوس أناس أميين ومؤمنين بالخرافات مثلهم أثراً عميقاً إن لم نقل قبيحاً وقد أثبت الزمن صحة ذلك.

ويقال أيضاً إن حادثاً كئيباً آخر حدث أثناء الجنازة. فبينما تقدم الموكب إلى موضع يدعى «مولاجتيني»، لمح الشبان الذين كانوا برفقة ابن مكينا تلك الأرنبة التي طاردها وقادته إلى حتفه. رأوها تعبر الطريق على بعد عشرين ذراع أمام الجثمان. وتقول القصة إن أحدهم رماها بحجر كبير بمقدوره قتل أي أرنب عادي آخر، لكن تلك الأرنبة لم تصب بأي أذى، بل أصدرت أنيناً كصوت برميل فارغ حين يُضرب بحجر. لكن الجثة دفنت مع ذلك ومضى الوقت. وكما يحدث عادة بدأت القصة تتلاشى وتُنسى، إلى أن جاء يوم انتشر فيه خبر مفاده أن فرانك مكينا عاد للظهور ثانية. وفي إحدى الليالي، تقريباً في الليلة الرابعة بعد دفنه، قالت ابنة دالي (وهو صاحب البيت الذي وجد مكينا ميتاً بقربه) إنها شاهدت شخصاً يشبه الشاب مكينا يظهر لها. فصرخت وغطت وجهها بشرشف السرير ثم أخبرت أباها وأمها أن مكينا في بيتهم. ومن الطبيعي أن يدب الذعر والخوف في كل من كان في البيت، ومع أن دالي لا يؤمن كثيراً بمثل هذه الأمور، فقد قام بفحص البيت الذي يتألف من شقة واحدة فقط ولم ير شيئاً، فخطر للبنت إلقاء نظرة أخرى على الشبح بعد أن علمت أن أباها لم يتمكن من رؤيته فتجرأت وأطلت برأسها فلم تره هي أيضاً، ثم أغفت بعدها بفترة قصيرة. وقد عزا الأب ما

رأته ابنته للخوف، أو أنه مزيج من تشابك الظلال القادمة من قطع الأثاث وضوء القمر المنعكس عليها. وخلال النهار التالي انشغلت العائلة بأمور أخرى، وبدا أنها نسيت أمر الشبح، لكن بحلول المساء عاود الفتاة خوفها مرة أخرى، وادعت أنها رأت الشبح في الوقت نفسه، وتكرر ذلك لعدة ليال تلت، حتى بدأت تتأقلم مع خوفها، وتألف حضور الشبح، لدرجة أنها خاطبته مرة بالقول: «وحق الرب ما هي مشكلتك؟ ولماذا تظهر لي بدلاً من الظهور لأي من أفراد عائلتك أو معارفك؟».

فأجابها: «لا يُسمح لي بالتحدّث إلى أي من أصدقائي، لأني تركتهم ونحن متخاصمون، لكني جئت لأخبركِ بأنهم يتنازعون حول سروالي الجديد الذي اقتنيته لأجل عيد الميلاد، وبما أنني كنت منطلقاً لرحلة صيد في الجبال، فقد ارتديت السروال القديم وتركتُ الجديد، وقد ظهرتُ لكِ عدة مرات لأطلب منك إخبارهم بألا يلبسه أي منهم، وأن يتبرعوا به لشخص محتاج. قامت الفتاة بنقل رسالة الشبح إلى أهله، وبناء عليه توطدت ثقته بعائلتها أيضاً، وصار يظهر لهم ويحادثهم لكنها بقيت الشخص الأثير لديه، وأما هي فقد انعدمت خشيتها منه تماماً بمرور الوقت. وحين أخبرها أنه جرح ظهره بنتوء الباب الذي مددوه

عليه ليحملوه للبيت، وقد آلمه ذلك كثيراً، تبادلت تلك المعلومة مع عائلته، وتبين أن الجرح كان موجوداً في جثته بالفعل، مما أكد صحة كلامها ورؤيتها حقاً لشبحه. ومنذ ذلك الحين أخذ بعض الناس والجيران يُكثرون التردد على بيتها لإرضاء فضولهم بمعرفة تفاصيل القصة. وازدادت أيضاً زيارات الشبح لها، بل صار يزورها في النهار، ليتبادلا أحاديث روحانية مطولة. وقد وجدته مصدراً رائعاً للنصيحة. فتعلمت منه كيف تنظر لكثير من العيوب والتصرفات غير الأخلاقية كالسرقة والإدمان على الشراب والبذاءة في الكلام. وهكذا لم يحدث لشبح من قبل، أن كان بمثل أهميته، ولم يُوظف شبح لخدمة أصدقائه مثلما وظف هو نفسه. مما أدهش البلاد كلها. وما زلتُ أذكر الحشود التي اصطفت أمام كوخ تلك الفتاة، بدافع الفضول والدهشة. فلا يمر يوم من دون أن يجتمع في بيتها عشرون أو ثلاثون أو حتى خمسون شخصاً على الأقل، ويروحون يخبرون في أثناء تلك المقابلات مع الشبح، والتي صارت مركز أحاديث الناس، وما يفكرون به، وحتى ما يحلمون به. وكنتُ على وشك الذهاب إلى هناك بنفسي، لكن عائقاً ما شغلني ومنعني، وإلا لظهر لي ذلك الشبح ربما، كما ظهر للفتاة، ولصار صديقي مثلما هو صديقها.

وأما المكان الذي عثروا فيه على جثة الشاب مكينا، فقد عُلم بكومة أحجار، جُمعت في ذلك اليوم نفسه. وكل من يمر بقربه، يرمي حجراً إضافياً إلى تلك الكومة. لكن ما الذي يعنيه هذا التقليد، ولماذا يُمارس، فلست أدري. ربما، ببساطة، لتمييز المكان، والتذكير بالحادثة وما تلاها. أما بيت دالي فيبدو الآن مثل الأثر، لا شكل محدد لها. ولولا تلك البقعة الخضراء المحيطة به، والتي تشع عن بعد مثل الجوهرة، لما لوحظ وجوده على الإطلاق. وهي البقعة التي لا يجرؤ صبي بمفرده على الاقتراب منها قط، كما لا يزورها من يؤمن بالأشباح ويخشاها. لكن لو نُظر إليها مقترنة بما مرّ ذكره من أحداث، لبدت مثالاً للحزن والوحدة والفزع.

الساحرات والجنيّات الطيبات[1]

(1) جرى الاعتقاد أن الساحرات والجنيات الطيبات ينتمين لسلالتين مختلفتين، وكل نوع منهن يستمد قوته من مصدر مختلف. الساحرات من الأرواح الشريرة وإرادتها الخبيثة، أما الجنيات الطيبات فمن الجن ومن قدرات معينة تولد معهن. الساحرات مكروهات يعشن دائماً على الخوف، والأخريات يُطلب نصحهن، وأقصى ما يفعلنه من سوء يعتبر مجرد لهو وعبث بريء بالمقارنة مع الساحرات. وأكثر الجنيات الطيبات شهرة هن نساء وقع الجن في حبهن وقاموا باصطحابهن معهم إلى عالم الجن حيث عليهن البقاء هناك لسبع سنوات. ولا يقوم الجن دائماً بأخذ حبيباتهن إلى أرض الجن لكن قد يلاحظ تغير في طباعهن ويصبحن غريبات الأطوار و يفقدن القدرة على الكلام تماماً، وغالباً ما يتحولن إلى شاعرات أو موسيقيات أو جنيات طيبات. والجنيات الطيبات غالباً ما يعقدن صداقات مع جماعة الجن الصغار المرحين، وهم على علم بفوائد الأعشاب والكثير من الرقى والتعاويذ كتركيبها وطرق التخلص منها (المؤلف).

الزبدة المسحورة (من حكايات دونجال)[1]

ليتيشيا ماكلنتوك

عاشت عائلة «هانلون» في مكان لا يبعد كثيراً عن «راثمولين»، وفي مزرعة على بعد بضعة حقول منهم عاشت عائلة «داجرتي». وكانت العائلتان من مربي الأبقار، واختلفت أبقار عائلة «هانلون» عن الأخرى بانحدارها من سلالة «كيري»[2] التي تتميز بوفرة حليبها والزبدة الصفراء الدسمة التي تصنع منه.

وحدث أن تعلقت الشابة غريس داجرتي، وهي فتاة يكن لها الجيران جميعاً إعجاباً ومحبة، ببقرة كيري، وجاءت يوماً لعائلة هانلون بطلب متواضع قائلة: «أتسمحون لي بحلب بقرتكم؟».

فأجابتها السيدة هانلون: «ولِمَ تريدين حلب البقرة يا عزيزتي غريس؟».

(1) Donegal دونجال منطقة في آيرلندا (م).
(2) Kerry كيري منطقة في آيرلندا معروفة بكثرة مراعيها وجودة منتجاتها من الحليب ومشتقاته (م).

فردت: «لاحظت أن مشاغلك كثيرة وأردت مساعدتك».

فقالت السيدة هانلون: «شكراً جزيلاً يا عزيزتي، لكنني أفضّل إنجاز أعمالي بنفسي». ابتعدت غريس وعلى وجهها علامات الخيبة والحزن، لكنها كررت الطلب نفسه في المساء الذي تلاه والذي تلاه. وأخيراً، وأمام إلحاحها المتزايد، استسلمت السيدة هانلون بامتعاض، وسمحت لها بحلب البقرة. لكن غريس ندمت على إصرارها، فقد وجدت ضروع البقرة جافة، لم تمنحها إلا بضع قطرات من الحليب. واستمرت هذه المعاناة ثلاثة أيام متتالية.

شكت عائلة هانلون حال البقرة لمارك ميكاريون، الذي يعيش بالقرب من منطقة «بينيون»، فقال لهم: «تلك البقرة حلبها شخص بعين شريرة[1]».

فسألت السيدة هانلون: «حسناً يا عزيزي مارك وما العمل الآن؟».

قال مارك: «أقفلي بابك يا سيدة هانلون، وأحضري تسعة دبابيس لم يسبق استخدامها، ضعيها في دلو حديدي مع القليل من حليب تلك البقرة، ثم أشعلي النار تحت الدلو حتى الغليان».

---

(1) في المفهوم الشعبي الشائع (أصابتها عين).

نفذت السيدة هانلون النصيحة، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الحليب يغلي ويبقبق، ثم سُمع صوت خطوات عند عتبة الباب، تلاه صوت غريس دجرتي الرفيع العالي، وهي تقول: «افتحي لي يا سيدة هانلون. ارفعي ذلك الدلو البغيض عن النار وانتشلي تلك الدبابيس منه، فإنها تخزني وتحرقني في قلبي. وأعدك ألا ألمس بقرتك بعد الآن».

ساحرة مقاطعة كوين[1]

قبل زهاء ثماني سنوات، في شهر مايو، أُرسل في طلب أحد رجال الدين الكاثوليك، بالقرب من «راثداوني» في «مقاطعة كوين» للمجيء والصلاة على روح رجل مات في ركن بعيد من الأبرشية.

جاء القس وأدى واجبه على أكمل وجه، وظل إلى جوار الميت حتى فارقت روحه الكوخ إلى العالم الآخر. ولأن الظلام قد حل، عرض عليه من قام بإحضاره مرافقته أثناء عودته، لكنه رفض، وانطلق وحيداً في طريقه. مضى ببطء، يستمتع بكل منظر يصادفه، وقد سحرته رؤية الفجر الرمادي والطيور الصغيرة التي تحلق بحرية وجمال من سياج لسياج. وعند شروق الشمس واتضاح معالم الأشياء من حوله، ترجّل عن حصانه وسحب مفكرته من جيبه، وبدأ يراجع وهو يتمشى بهدوء برنامجه لذلك اليوم.

---

(1) نقلها ييتس من مجلة جامعة دبلن الصادرة عام 1839.

وبعد لحظات لفت انتباهه أن حصانه توقف فجأة وأخذ يحدق باهتمام في ثلاث بقرات ترعى في حقل مجاور، فلم يكترث لذلك وتابع سيره شاداً رسن الحصان خلفه، لكن بعد عدة خطوات حرن الحصان تماماً، وراح يشبّ بقائمتيه الأماميتين، ويطلق صهيلاً غريباً، كأن شيئاً ما أفزعه، فهدّأه بعد بذل الكثير من الجهد، ثم راح يتأمله عله يكتشف سر خوفه، فوجده يرتجف ويتعرّق من رأسه حتى قوائمه، وقد تجمّد في مكانه ورفض أن يتزحزح شبراً واحداً.

استغرب القس سلوك الحصان، لكنه تذكّر حيلة سمع بها لحثّ الجياد المذعورة على السير. فأخذ منديلاً من جيبه، وعصب به عينيه بشدة حتى لا يتمكن من الرؤية ويتابع طريقه، ثم دفعه للأمام بضربة خفيفة على كفله، فتقدم باستسلام، لكنه ظل يرتجف، واستمر العرق ينضح منه.

ولم يمضِ وقت طويل، حتى وصلا مقابل درب ضيق أحيط من الجانبين بسياج من الأشواك البرية، يؤدي إلى ذلك الحقل الذي كانت البقرات الثلاث ترعى فيه. وحين نظر القس نحو ذلك الموضع رأى منظراً جمد الدم في عروقه. شاهد جذع رجل دون رأس يتقافز في الحقل خلف تلك ذلك السياج. فاستجمع

قواه وقرر الوقوف قبالته، ففعل جذع الرجل بالمثل. وبقيا هكذا حتى خطا القس متراجعاً خلفه، وكأنما يريد إغراء الجذع باللحاق به، ففعل الجذع مثله وتقدم ببطء وحذر إلى أن صار في وسط الطريق، وصار بإمكان القس تأمله وفحصه من كثب.

كان يرتدي سروالاً قصيراً أصفر، ثبت بإحكام تحت ركبتيه بشرائط خضراء، لكنه بلا حذاء أو جوارب. يغطي ساقيه شعر أحمر طويل، وكثير من الجروح النازفة بسبب قفزه فوق تلك الأسيجة الشائكة. ورغم جزع القس إلا أنه قرر معرفة ماهية هذا المخلوق العجيب والتحدث إليه، وفكر بشحذ جميع قواه ومداركه ليتمكن من فعل ذلك. في تلك الأثناء كان الجذع قد سبقه مبتعداً عنه بخطوات ثابتة منتظمة، وكان عليه امتطاء الحصان للحاق به. بادره قائلاً حين صار بقربه: «مرحباً أيها الصديق، من أنتَ؟ وأين تذهب في هذا الوقت المبكر؟».

لم يجب الجذع المخيف بكلام مفهوم، بل أطلق همهمة عالية مرعبة تشبه «أومف»، فجرّب القس حظه مرة أخرى، قائلاً: «أسعدت صباحاً أيها الشبح الجوال».

لكنه لم يلقَ جواباً سوى كلمة «أومف». فأصر عليه قائلاً: «ولم لا تتكلم؟».

«أومف».

«يبدو أنك لا تميل كثيراً للحديث هذا الصباح».

«أومف».

بدأ صبر القس ينفد أمام صمت ذلك الكائن الغريب، لكنه قال بلطف: «باسم كل المقدسات، أجبني، من أنتَ، وإلى أين تتجه؟».

ولم يكن الجواب سوى «أومف» أخرى، بصوت أكثر حدة، وأكثر غضباً من قبل.

فقال القس: «ربما لسعة من هذا السوط ستجعلك تنطق». وساطه بقوة. فأطلق الجذع صرخة مدوية وحشية، كأنها ليست من هذا العالم، ثم سقط إلى الأرض. فرأى القس مندهشاً كيف طافت الأرض من حوله بالحليب، وحين نظر إلى جسد الجذع وجده ينز حليباً من كل مسامه.

أحس القسّ بالدوار وبدأت رؤيته تتشوّش وكاد يغمى عليه، لكنه تماسك واستعاد قواه بعد لحظات. حين فتح عينيه لم يجد أثراً للجذع المخيف، وبدلاً منه رأى «سارة كينيدي»، المرأة

العجوز التي اشتهرت بقدراتها السحرية الخارقة، تقف وسط مستنقع صغير من الحليب.

واكتشف القس أنها كانت في مهمة لسرقة حليب جميع الأبقار في تلك المنطقة وقد تلبست هيئة ذلك الجذع. لكنها فقدت قدرتها فجأة ووقعت وكادت تختنق بالسيل المتدفق من جسدها. قال القس الذي كانت دهشته مما يراه تفوق دهشته فيما لو انفجر بركان بين ساقيه: «سارة، لقد نهيتك منذ زمن بعيد عن ممارسة سحرك وألعابك الشيطانية هذه، لكنك أبيت الانصياع وها قد وقعت في شرّ أعمالك».

فتأتأت سارة بصعوبة قائلة: «آه يا أبتي، ألا يمكنك مساعدتي؟ لقد قُضي علي. جهنم تنتظرني والشياطين يحيطون بي في هذه اللحظة استعداداً لحمل روحي إلى الجحيم». لم يجد القس ما يجيب به. بقيت الساحرة العجوز تتلوى ألماً وقد انتفخت وتضاعف حجمها، واحمرت عيناها كأنهما تشويان على النار، واسودّ وجهها كأنه عتمة الليل الحالكة، وبدا بدنها كأنه سيتمزّق لآلاف القطع.

ثم بدأ صراخها يخفت، ووجهها يتضاءل، وعيناها تنغلقان، وبعد لحظات انفجرت كلها انفجاراً مرعباً. فتابع القس طريقه

نحو بيته، مفكراً في التوقف عند أول كوخ يصادفه ليخبر عما حدث. أما أشلاء سارة كينيدي فقد نُقلت إلى كوخها ووُضعت فوق حافة بعيدة على قطعة من الخشب. ورغم أنها تقيمُ في تلك المنطقة منذ أمد بعيد، لكنها كانت دائماً غريبة معزولة، ولا أحد يعلم بالضبط من أين جاءت، ولم يكن لها أقرباء هناك سوى ابنتها التي تعيش معها. والغريب أنها لم تكن تملك سوى بقرة واحدة، لكنها كانت تبيع من الزبدة أكثر من أي مزارع آخر من مزارعي الأبرشية، وقد ساد الاعتقاد بأنها تستعمل قواها الشيطانية لحثّ بقرتها على إدرار المزيد من الحليب. وهي الأخرى لم تحاول يوماً إخفاء تلك الحقيقة، والتصريح بعلاقتها الوطيدة مع عالم الجن. ومع أنها دخلت في نطاق الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، إلا أنها لم تكن متديّنة أو مؤمنة، ولم تُمارس أياً من طقوس العبادة في تلك الكنيسة.

ولذلك لم تقبل الكنيسة بدفنها بين رعاياها المسيحيين، فُحفر لها قبر على عجل، إلى جوار كوخها. ثم قام الفلاحون في مساء يوم الدفن بطمر كوخها كاملاً بالتراب. أما ابنتها فقد هربت، واختفت أخبارها منذ ذلك الحين.

الأرنبة الساحرة

السيد والسيدة س. ك. هول

بينما كنتُ في الحقول أطارد بعض الأرانب البرّية، رأيتُ أرنبة فريدة الجمال تتقافز في ضوء القمر. تنتصب أذناها تارة، ثم تتهدلان، وتارة أخرى ترمش بعينيها الرائعتين كأنها تنظر في وجهي. قلت في نفسي: «هيا امسكها». فالتفتت وقفزت مبتعدة، ساخرة مني كأنها تقول: «أرني شطارتك». لم يكن معي إلا القليل من البارود، فحشوت بندقيتي وصوّبت نحوها. ارتعشت وفرت واختفت عن ناظريّ تماماً. لكن بعد انقشاع الضباب، لمحتُ دماً فوق العشب، حيث كانت. تتبعتُ آثار الدم فأوصلني إلى بيت «كيتي ماكشان»، وعند العتبة سمعت همهمة وأنيناً حاداً، وحين فتحتُ الباب ودخلتُ وجدتُ تلك الأرنبة نفسها تجلس براحة على هيئة امرأة، وبالقرب منها تجلس قطة سوداء، وقفت مقوسة ظهرها ثم بصقت عليّ. لم أكترث للقطة، وتوجهت للعجوز بالسؤال عن حالها وما أصابها. أجابتني: «لاشيء». فقلت: «وما ذلك الشيء على الأرض؟». فردّت: «آه، كنتُ أقصّ قطعة خشب، وجرحني المنجل في ساقي، وتلك نقاط من دمي الغالي».

الزبدة المسحورة[1]

(من حكايات كوين)

في مستهل القرن الماضي عاش بالقرب من قرية «آجافو»[2] المشهورة، فلاح ثري يُدعى برايان كوستيجان. وكان لديه قطيع ضخم من الأبقار الحلوبة. وقد اعتاد جني أرباح ممتازة من بيع الحليب والزبدة في كل عام. وعلى العموم كانت منطقته تلك، تتميز بخصوبة مراعيها وبالتالي بجودة وروعة مشتقات الحليب المنتج من أبقارها. واشتهرت أبقار برايان بالتحديد بغزارة ما تدرّه من حليب ذي طعم غني رائع، والذي جلب له أعلى الأسعار في جميع الأسواق التي بيع فيها.

واستمرت الأحوال تسير حسناً مع برايان، حتى جاء فصل من الفصول بدأ فيه عدد قطيعه بالتناقص، وأخذ إنتاجه من الحليب يشح، حتى أوشك أن ينقطع تماماً. وقد أرجع برايان ذلك لسوء الطقس، أو لأسباب مشابهة، لكنه اكتشف فيما بعد (أو تخيّل) أسباباً أخرى. ما حدث هو أن أبقاره أخذت

(1) نقلها ييتس من مجلة جامعة دبلن الصادرة عام 1839.

(2) قرية جميلة ذات مناظر رومانسية ساحرة في مقاطعة كوين. كانت تتمتع فيما مضى بأهمية كبيرة ولم يبق منها الآن سوى آثارها المميزة (م)..

تنفق يومياً من دون علة واضحة، وبدلاً من الحليب بدأ بعضها يدرّ دماً، وحتى حليب الأبقار الصحيحة كان مُراً، تأنف الخنازير شربه، وزبدته رديئة كريهة الرائحة، لا يمكن إغراء حتى الكلاب بلحسها. لجأ برايان إلى كل المشعوذين والجنيّات الطبيبات في البلد كله، طلباً للنصح والمشورة، لكن دون جدوى. أعلن غالبيتهم استسلامهم منذ البداية، أو شخصّوا الأسباب، لكنهم عجزوا عن تقديم أي علاج شاف من ذلك السحر الذي وقعت المزرعة تحت براثنه، وأكدوا له أن لا شيء بمقدوره مساعدته الآن غير العناية الإلهية وحدها.

أصيب المسكين بالكآبة وصار عصبياً عاجزاً عن التفكير، وهو يرى ما يحلّ بمزرعته وأملاكه من دمار. هجره النوم وصار يمضي نهاراته متجولاً في الحقول، لا يعرف ماذا يفعل، فقد جرّب كل شيء دون فائدة، وكان أمام خيار واحد هو بيع قطيعه كله واستبداله بواحد آخر، ولكن كيف؟ لو قرر بيعه فلن يُقدم أحد على شرائه إلا بأبخس الأثمان، هذا إن رضي أن يشتريه أصلاً، ولو أرسله للذبح فسيرفض اللحامون شراء لحمه العفن المسودّ، وقد تأكّد بنفسه من ذلك، حين ذبح بقرة، فوجد لحمها أسود كالفحم تفوح منه رائحة زنخة كرائحة الجيف، حتى إن

أحداً لن يقبله ولو بالمجان.

وتتالت الأيام على هذا النحو حتى جاء مساء، وكانت زوجته جالسة أمام باب بيتها، تغزل الصوف بذهن شارد مشوش، وحين نظرت إلى الأسفل، نحو الممر الضيق المعشب، الذي يصل بيتها بالطريق العام، شاهدت عجوزاً ضئيلة الحجم، حافية القدمين، ملتفة بعباءة، تتعكّز على عصا وتتقدم نحوها ببطء. أحسّت الزوجة بسعادة لم تفهم مصدرها، لرؤية امرأة غريبة مثلها، تدخل المزرعة. وحين صارت العجوز عند العتبة حيتها الزوجة بكل حماس، راسمة ابتسامة عريضة على وجهها.

فبادرت الغريبة قائلة: «ليحرس الله هذا البيت وكل من فيه».

فأجابت الزوجة: «ليحرسك الله بلطفه أيضاً، وأهلا وسهلاً بك كائناً من كنت».

فردّت العجوز: «نعم هذا ما توقعته. هذا بالضبط ما توقعته وإلا لما جئتُ وأزعجتك». ركضت الزوجة وأحضرت كرسياً لها، وضعته بجانب الموقد، لكنها رفضت استخدامه، وفضلت أن تقعي على الأرض بجانبها مما منحها فرصة ملائمة لتفحصها عن

قرب، ورأت كم هي مسنة دميمة، بشرتها جافة خشنة، تخطها تجاعيد عميقة، كأنها عانت طويلاً من حرارة المناطق الاستوائية، أما جبينها فمنخفض ضيق، تخطه التجاعيد أيضاً، وشعرها الرمادي الطويل يتهدّل على شكل جدائل شعثاء من تحت قلنسوتها البيضاء، وعيناها ذابلتان غارقتان في محجريهما، تتخللهما عروق حمراء كجذور النباتات الصغيرة. أما صوتها فواهن يرتجف ويكاد ينقطع تماماً في بعض اللحظات. وبعد أن جلست مسحت البيت، ركناً ركناً، بنظراتها العميقة، كأن بمقدورها النفاذ إلى قلب الأشياء، وحتى رؤية العناصر التي تتألف منها. ظلت الزوجة تراقبها بمتعة وفضول وبعض الشفقة، إلى أن قالت: «يا سيدة، لقد جفّ حلقي من شدّة الحر، أيمكنك أن تقدّمي لي ما أبلّ به ريقي».

فردّت زوجة برايان: «للأسف ليس عندي إلا الماء».

فسألت العجوز بنغمة من يعرف الجواب عن سؤاله: «ألستِ صاحبة هذا القطيع الذي أراه يرعى في الخارج؟».

فشرحت لها الزوجة قصة القطيع بالتفصيل، وما حلّ به بينما ظلّت العجوز تهز رأسها الرمادي، وتوزّع نظراتها المليئة ثقة بالنفس وإحساساً بالأهمية، على كل شيء من حولها. وحين أنهت الزوجة كلامها صمتت العجوز قليلاً ثم قالت: «ألديك

بعضاً من ذلك الحليب هنا في البيت؟».

أجابت الزوجة: «نعم عندي».

فقالت العجوز: «أريني إياه».

ملأت الزوجة كوباً بالحليب، وأعطته للعجوز التي شمّته في البداية وتذوقته ثم بصقته أرضاً. بعدها سألت: «أين زوجك؟». فقالت الزوجة: «في الحقول». قالت العجوز: «يجب أن أراه».

أرسلت الزوجة وراء برايان فجاء في الحال. بادرته العجوز قائلة: «أيها الجار لقد أعلمتني زوجتك أن قطيعك انقلب ضدك هذا الموسم».

فقال برايان: «هذا صحيح».

فسألت العجوز: «ولِمَ لم تعالجه؟».

أجاب رايان مستغرباً: «أعالجه! ماذا تظنين أيتها المرأة؟ لقد سعيت لعلاجه بكل السبل لكن دون فائدة، بل على العكس حالته تسوء يوماً عن يوم».

فقالت العجوز: «وماذا تعطيني لو تمكّنت من علاجه؟».

فأجاب مع زوجته بلسان واحد: «بكل ما نقدر عليه».

ردت العجوز: «لا أريد إلا نصف شلن وتقومان بكل ما أطلبه منكما».

اندهشا من تواضع طلبها، فعرضا عليها مبلغاً كبيراً من المال. فقالت: «لا أريد نقودكما، فأنا لست بمخادعة، أريد نصف شلن فقط».

فأعطاها برايان ما طلبته، وقد أحسّها مثل ملاك هبط عليه من السماء، وأعلن مع زوجته أنهما سيطيعان جميع أوامرها وطلباتها دون جدال. حلت العجوز صرة، كانت تدسّها تحت قبعتها، وسحبت منها شريطة من حرير أسود أعطتها لبرايان قائلة: «خُذ هذه الشريطة واذهب لقطيعك في المرعى. المس به إحدى البقرات، ثم قُدها الى الباحة، وحذار وأنت تقوم بذلك ألا تلمس الشريطة بقرة أخرى، وألا تنطق بكلمة واحدة حتى ترجع إلى هنا، وإياك أيضاً أن تلامس الشريطة الأرض وإلا ذهب كل تعبنا هباء».

نفذ برايان أوامرها بحذافيرها، وعاد يجرّ بقرة حمراء. خرجت العجوز واقتربت منها ثم سحبت شعرة من ذيلها وهي تُنشد بعض الأبيات باللغة الآيرلندية القديمة، بصوت منخفض،

غريب النبرة، فانتفضت البقرة بضيق، لكن الساحرة العجوز تابعت رُقاها، وسحبها للشعرات من ذيلها، حتى صارت بيدها تسع شعرات، ثم طلبت إعادتها إلى المرعى ودخلت المنزل. خاطبت الزوجة قائلة: «أما أنت فاذهبي واجلبي لي قليلاً من حليب كل بقرة في قطيعكم».

فذهبت الزوجة وعادت بدلو كبير مملوء بحليب كريه المنظر، كأنه مزيج من قيح ودم. فأخذته العجوز ووضعته في الممخضة[1] ثم قالت: «أنتما الاثنان ستقومان بخض الحليب، أغلقا النوافذ والباب جيداً، ولا تتفوها بحرف واحد حتى آمركما بذلك، وإن اتبعتما تعليماتي بدقة، فلن تغرب الشمس قبل أن نكتشف الشرير الذي يسرق خيركما».

أحكم برايان إغلاق الباب والنوافذ وبدأ مع زوجته بخض الحليب، وجلست العجوز بجانب النار المشتعلة التي أُعدت خصيصاً لهذه المناسبة، وبدأت تنشد الأبيات والرقى الغريبة التي أنشدتها حول البقرة في الخارج وبعد وقت قصير أسقطت واحدة من الشعرات في النار وتابعت الإنشاد باستغراق. وفجأة سُمعت في البيت صرخة قادمة من امرأة تتألم. توقفت العجوز عن

(1) الممخضة: آلة تقليدية لصناعة الزبدة، عن طريق خض الحليب أو اللبن لعزل الطبقة الدسمة عن السائل (م).

الإنشاد وأصغت جيداً فلاحظت أن صوت المرأة المتألمة يقترب من الباب. صاحت بالزوجين: «افتحوا الباب بسرعة».

هرع برايان وفتح الباب واندفع ثلاثتهم نحو الخارج وسمعوا الصرخة نفسها تأتي من أسفل الشرفة، لكن حين نظروا لم يروا شيئاً. قالت العجوز: «لقد ضاع كل شيء، لابد من أن خطأً ما قد حدث، و فقدَ سحرنا مفعوله».

وبينما استداروا، عائدين بأسى، لمحت العجوز قطعة المعدن من حدوة الحصان[1] المدقوقة عند عتبة الباب فصاحت: «انظروا لقد عثرت عليها. لا عجب أن سحرنا فشل. فالمرأة التي كانت تبكي متألمة هي ذلك الشخص الذي سحر قطيعكم وقد استطعتُ إحضارها للبيت، لكنها لم تتمكن من الدخول بسبب حدوة الحصان المدقوقة على الباب، هيا انزعوها من هنا، ولنجرب حظنا مرة أخرى».

نزع برايان حدوة الحصان ووضعها حسب أوامر الساحرة تحت الممخضة بعد أن عرضّها قليلاً لألسنة النار. وعادوا لمتابعة ما كانوا يقومون به: الزوجان يخضان الحليب والساحرة تتلو

(1) تقليد ما زال متبعاً في آيرلندا إلى يومنا هذا في بعض المناطق الريفية، يقوم على تثبيت جزء من حدوة حصان على عتبة الباب كي يبعد الأرواح الشريرة والجن عن المنزل (المؤلف).

رقاها وتحرق الشعرات في النار إلى أن نال منهم التعب جميعاً، وبدأت تلوح عليهم معالم اليأس وخيبة الأمل، وخاصة الساحرة التي شحب لونها وصرّت على أسنانها وارتجفت يداها، وعندما أسقطت الشعرة التاسعة في النار بدت أقرب إلى الشيطان منها لامرأة من بني البشر. ومرة ثانية سُمعت الصرخة وتلاها ظهور امرأة مسنة، بشعر أحمر[1]، شوهدت تقترب من البيت بسرعة. صاحت الساحرة: «ها ها ، كنت أعرف أن سحري لا يخيب، ها هي تأتي تلك اللصة التي دمرتكم». فسأل برايان: «وماذا علينا أن نفعل الآن؟».

ردت الساحرة: «لا تقولا شيئاً. أعطياها كل ما تطلبه واتركا الباقي عليّ».

فتح برايان الباب، وخرج لمقابلة المرأة التي كانت إحدى الجارات. أخبرته أن أفضل بقراتها توشك على الغرق في البركة وهي وحيدة في البيت، ورجته أن يأتي معها ليساعد في إنقاذها. فرافقها دون تردد، ثم ساعدها في انتشال البقرة وعاد في أقل من ربع ساعة. حان موعد العشاء وانصرفت الزوجة لتحضير الطعام. وخلال تناول العشاء تحدثوا عما حدث خلال اليوم،

(1) جرى الاعتقاد أن ذوي الشعر الأحمر يتمتعون بقوى خارقة للعادة (المؤلف).

وأطلقت الساحرة الكثير من الضحكات، معتدة بما حققته من انتصارات، وكيف كشفت شخص اللصة. وقام برايان بتزويدها بتفاصيل عن تلك الجارة قائلاً إنها زوجة أحد المزارعين واسمها ريتشل هيجن. ويقال إنها تتعاطى السحر والشعوذة. تملك خمس أو ست بقرات، وقد شاع عنها أنها تبيع من الزبدة في السنة أكثر مما تبيعه بعض الزوجات الأخريات ممن لديهن عشرين بقرة أو أكثر. وقد شكّ بها برايان منذ البداية لكنه كان بلا دليل أو إثبات فالتزم الصمت.

قالت الساحرة مبتسمة بخبث: «حسناً لا يكفي أننا اكتشفنا السارقة، فلن ينفعنا ذلك في شيء إن لم نعاقبها على فعلتها ونمنعها من القيام بعمل مماثل في المستقبل».

سأل برايان: «وكيف يمكننا التأكد من ذلك؟».

أجابت: «سأخبرك كيف. عندما تحين الساعة الثانية عشرة تماماً هذه الليلة، تذهبُ إلى الحظيرة، وتأخذ معك زوجين من الكلاب قويين سريعين، ثم تختبيء في مكان قريب من القطيع وتراقبه بدقه، وبمجرد أن تلمح أي مخلوق يقترب منه، أكان إنساناً أم غيره، تطلق عليه الكلبين، وتحثهما على مهاجمته وجرحه

حتى نحصل على دمه. حينها سنكون قد أنجزنا مهمتنا، وإن لم تر شيئاً قبل شروق الشمس، فارجع وسنجرّب تجريب طريقة أخرى فيما بعد».

لم يغمض لبرايان وزوجته جفن تلك الليلة، وحين اقتربت الساعة من الثانية عشرة تماماً أخذ زوجين من الكلاب الشرسة استعارهما من أحد جيرانه وذهب برفقة بعض أصدقائه إلى المزرعة. وبعد التشاور حول أفضل الأمكنة للاختباء ربضوا في مكان مناسب، خلف بعض الأشجار الشوكية، وجعلوا الكلبان يربضان بقربهم بهدوء، بانتظار ظهور ذلك المخلوق الغامض. مرّ بعض الوقت ولم يحدث شيء، وبدأ قلقهم يتعاظم، وصبرهم ينفد، خاصة أن أنوار الصباح أخذت تلوح حتى أنهم فكروا بالعودة، لكن فجأة سمعوا صوتاً منبعثاً من خلفهم كأنه صوت مخلوق يحاول فتح معبر له في سياج المزرعة. وحين دققوا النظر من حيث جاء الصوت، رأوا أرنبة برية ضخمة، كأنها نبعت من الأرض وقفزت بالقرب منهم، فتوقعوا أن تلك الأرنبة هي المخلوق الذي يترقبونه فصاروا يتابعون تحركاتها بكل حذر.

بقيت الأرنبة فوق الأرض ساكنة لبعض الوقت، تحدق حولها، ثم أخذت تتقافز بمرح باتجاه القطيع، وحين وصلت بدأت ترضع

حليب الأبقار واحدة واحدة. خارت الأبقار بفزع، محاولة جهدها التملص من تلك الأرنبة دون جدوى. همّ برايان بإطلاق الكلاب عليها منذ بدأت ترضع أول بقرة، لكن مرافقيه نصحوه بالتمهل، فمن الأفضل الانتظار حتى تملأ جوفها بالحليب، ويثقل وزنها وتبطؤ حركتها، فيصعب عليها الهرب. وبالفعل بعد أن رضعت من جميع البقرات انتفخ بطنها، وثقلت خطواتها وهي تتجه نحو الفتحة التي صنعتها في السياج لتغادر المزرعة. وهكذا حان وقت إطلاق الكلبين عليها، وهذا ما فعله برايان بالضبط. فركضت هاربة، مذعورة من أنياب الكلبين، وتدفق الحليب من فمها وأنفها، وبدا أنها تحاول الإسراع باتجاه كوخ ريتشل هيجن. وركض برايان ومن معه باتجاه الكوخ نفسه، متبعين طريقاً أقصر، ووصلوا في اللحظة نفسها التي وصلت فيها إلى هناك.

أسرعت الأرنبة المرهقة باتجاه الكوخ والكلبان ما زالا يطاردانها ومن المؤكد أن رؤية برايان وجماعته فاجأتها وأربكتها، لكنها تابعت طريقها باتجاه الباب وحشرت جسدها في فتحة تحت العتبة، وكادت توشك على الاختفاء بالكامل، حين طاولتها مخالب أحد الكلبين. أطلقت صرخة ألم، بينما يحاول الكلب جرها بمخالبه للخارج، لكنها تملصت منه ونجحت في

الدخول. اندفع الرجال نحو الباب وضربوه بأكتافهم فانفتح على مصراعيه، وهناك في الداخل رأوا النار مشتعلةً في الموقد والدم يلطخ الأرض، لكنهم لم يرو أي أرنبة، فزاد يقينهم بأن صاحبة البيت، ريتشل العجوز، قامت بمساعدة قوى شيطانية بتحويل نفسها إلى تلك الأرنبة، وقد صمموا على إيجادها مادامت حية. دخلوا غرفة النوم فسمعوا أنيناً كأنه أنين شخص يتألم بشدة، وحين تتبعوا مصدر الصوت وصلوا إلى كومة من الأغطية كانت ريتشل هيجن تئن وتتوجع تحتها، غارقة في بركة من الدم. خاطبوها فلم ترد عليهم. وازداد أنينها بمرور الوقت، وتحوّل إلى صرخات حادة مفزعة، فأدرك الرجال أنها تحتضر. تجمع أفراد عائلتها قرب سريرها، يبكونها ويرثونها، لكن لم يبدُ عليها أنها تدرك ما يدور من حولها، وساءت حالتها أكثر فأكثر، حتى انفجرت وماتت.

رجع برايان ورفاقه إلى البيت ليجدوا الساحرة في غاية السعادة لأن حيلتها نجحت واستغربوا كيف استطاعت معرفة ما حلّ بريتشل هيجن رغم أنها لم تكن معهم. حاول برايان مكافأتها بالهدايا والنقود لكنها رفضت. بعدها أمضت عدة أيام في بيتهم ثم رحلت إلى مكان لا يعلمه أحد.

أما جثمان ريتشل فقد بقي تلك الليلة، في كنيسة الحي، لكن بعد انتشار قصتها، ومعرفة الجميع بمصيرها قامت عائلتها بالتخلص من جميع الأملاك والهرب من البلدة، خجلاً من الفضيحة، وهرباً من اسم ريتشل هيجن، الذي اقترن بعالم الشياطين والجن.

ذوات القرون

ليدي وايلد

في إحدى الليالي بقيت سيدة ثرية ساهرة، تسرّح خيطان الصوف، بينما انصرف جميع أفراد عائلتها وخدمها للنوم. وفجأة سمعت قرعاً على الباب وصوتاً يقول: «افتحي، افتحي». فقالت: «من هناك؟». أجابها الصوت: «أنا الساحرة، صاحبة القرن الواحد».

ظنّتها السيدة إحدى جاراتها، وقد جاءت تطلب المساعدة أو تستعير غرضاً ما، ففتحت لها الباب. دخلت الساحرة تحمل في يدها زوجاً من الأمشاط لتسريح الصوف وعلى جبينها ثمة قرن كأنه قد نبَتَ هناك. جلست صامتة قرب النار، وأخذت تسرّح الصوف بحركة سريعة وعنيفة، ثم قالت فجأة: «أين الأخريات؟ لقد تأخرن كثيراً». تكرر القرع على الباب، وكما في المرة السابقة سمعت السيدة صوتاً يقول: «افتحي، افتحي». لم تتمالك نفسها فنهضت، وفتحت الباب. دخلت ساحرة أخرى، بيدها مغزل، وعلى جبينها قرنان. وتوالى القرع على الباب، واستمر معه

الصوت الذي يطلب بفتحه، وكذلك دخول الساحرات، الواحدة تلو الأخرى، حتى بلغن اثنتي عشرة ساحرة، جلسن جميعاً قرب الموقد. الأولى كان لها قرن واحد والأخيرة اثني عشر قرناً، انهمكن جميعاً بتمشيط خيطان الصوف وغزله ونسجه، وهن يُنشدن ألحاناً قديمةً من دون أن يتوجهن بكلمة واحدة لمضيفتهن. كان النظر إليهن مرعباً، وسماع صوتهن مقززاً، وأحسّت صاحبة البيت بأنها على وشك أن تختنق من الخوف، وتمنّت لو تستطيع الهرب أو الصراخ لطلب المساعدة من أهل بيتها، لكن الساحرات ألقين عليها سحراً عقد لسانها وجمّدها في مكانها.

ثم خاطبتها واحدة منهن بالآيرلندية قائلة: «انهضي أيتها المرأة واخبزي لنا كعكاً». نهضت المرأة وبحثت عن دلو لتحضر فيه ماء من البئر كي تعجن الطحين لكنها لم تجده. فقلن لها: «خذي مُنخلاً، واجلبي الماء فيه». أخذت صاحبة البيت منخلاً واتجهت للبئر، لكن الماء كان يرشح من ثقوبه كلما غرفته، ولم تستطع إحضار ولو نقطة واحدة كي تعجن بها الكعك، فجلست إلى جانب البئر وأخذت تبكي. ثم سمعت صوتاً بقربها يقول: «خذي طيناً وعشبا يابساً، امزجيهما ثم طيني بالمزيج أرض المنخل فتنسد الثقوب».

فقامت بذلك وتمكنت من جلب الماء في المنخل لأجل عجينة الكعك. ثم قال لها الصوت نفسه ثانية: «ارجعي، وعندما تصلين إلى الزاوية الشمالية من البيت اصرخي بصوت عال ثلاث مرات قائلة: «جبال نساء فينيان، والسماء فوقها، تحترق على النار». وفعلت السيدة كما طُلب منها وما إن وصل صوتها إلى الساحرات الاثنتي عشرة حتى انفجرن كلهن دفعة واحدة بصراخ مرعب، ثم انطلقن وهن ينحن ويرتجفن، مندفعات نحو «سليفنامون»[1] حيث مقر زعيمهن. لكن الصوت (الذي كان هو روح البئر نفسها) طلب من السيدة أن تحتاط من سحر الساحرات إن رجعن ثانية. فعليها أولاً أن تكسر التعويذة برش الماء الذي تغسل به قدمي طفلها (والـذي يسمى ماء القدمين) على عتبة الباب، وثانياً، أن تأخذ الكعك الذي صنعته الساحرات في غيابها أثناء إحضارها الماء، والذي مزجنه بدم سحبنه من كل أفراد العائلة، ثم تقطعه إلى أجزاء صغيرة، وتضع على فم كل واحد منهم جزءاً منه، وهكذا ستحميهم من تأثير السحر. ثم تأخذ النسيج الذي صنعوه وتقلبه على قفاه وأخيراً أن تقفل الباب من الداخل بالمزلاج، ثم تمتّنه بعارضة خشبية، حتى لا تتمكن الساحرات من الدخول أبداً. نفذّت السيدة كل

(1) جبال النساء (المؤلف).

ما سمعته بالتفصيل وجلست تنتظر. وبعد مدة ليست بالطويلة، سمعت أصوات الساحرات تناديها قائلة: «افتحي افتحي ، افتحي يا ماء القدمين». فأجابت ماء القدمين: «لا أستطيع. فأنا مرشوشة على الأرض». فقالت الساحرات للباب: «افتح افتح يا خشب الشجر» فأجاب الباب: «لا أستطيع، لأن العارضة مثبتة على المزلاج ولا أقدر على رفعها».

فصاحت الساحرات: «افتح افتح أيها الكعك الذي صنعناك ومزجناك بالدم».

فأجاب الكعك: «لا أستطيع، فأنا مقطع، وجسمي مليء بالكدمات والجروح، ودمي على فم الأطفال النائمين».

غضبت الساحرات غضباً شديداً من روح البئر التي دمرتهن، وطرن وهنّ يلعن سيدة البيت لعنات غريبة، ثم عدن خائبات إلى سليفنامون. ونعمت السيدة بالأمن والسلام بعد رحيلهن وقد عثرت على وشاح، يبدو أنه وقع من إحداهن، واحتفظت به لتريه لعائلتها في الصباح، كدليل على ما حدث معها في تلك الليلة الفظيعة. وقد احتفظت العائلة بذلك الوشاح وتناقلته الأجيال لخمسمئة عام بعد ذلك.

نزهة الساحرات[1]

باتريك كينيدي

استيقظ شيمس روا (جايمس الأحمر)[2] في إحدى الليالي على ضجة غريبة منبعثة من المطبخ، فتسلل بهدوء وأطل برأسه من الباب، فرأى ست نسوة عجائز، متحلقات حول نار الموقد، يمزحن ويضحكن. ورأى مدبّرة منزله العجوز ميدج توزع بمساعدة أختها كرونز كؤوس الشراب، وهي في غاية السرور والانشراح. وقد أدهشته وقاحة خادمته بدعوة أولئك العجائز، وذلك بعد تركها إلى جانب سريره شراب الحليب الساخن الممزوج بالكحول، كعلاج لنوبة البرد التي تعرّض لها، والذي شربه قبل أن يغفو. ويبدو أنها قد عقدت آمالها على مفعول ذلك الشراب في جعل سيدها متسامحاً أخرس أصمّاً عن ضجيج رفيقاتها الساحرات ومرحهن، وإلا فلن يتأخر عن تلقينهن درساً في التهذيب بطرف المكنسة، وهو ما رغب حقاً في القيام به، لكنه تحكّم بصعوبة بأعصابه.

(1) حكاية من أدب السلتيين، وهم أفراد عرق أوروبي قطن أجزاء واسعة من أوروبا الغربية (المؤلف).
(2) ليس بمقدور السلتيين لفظ حرف الجيم ، يستبدلونه بالشين، فيصبح جون شون وجايمس شيمس (المؤلف).

صاحت إحداهن حين فرغ الإبريق: «حان وقت انصرافنا». ثم اعتمرت قبعة حمراء وأضافت: «باسم الألفية والسذاب[1] وقبعتي الحمراء، أنطلقُ إلى إنجلترا».

ثم ركبت على غصن كان في يدها، كأنه حصان، واندفعت بكل وقار داخل المدخنة. وقامت الأخريات باللحاق بها بعد أن فعلن مثلها. وحين جاء دور مدبّرة المنزل اعترض شيمس طريقها قائلاً، وهو يخطف من يدها القبعة الحمراء والغصن: «بعد إذنك يا سيدتي». ثم أضاف قائلاً: «آه أيتها التمساحة القبيحة إن رجعتُ ووجدتُك في بيتي، فسأمسح بك الأرض». ولم تكد الكلمات السحرية نفسها «باسم الألفية والسذاب، وقبعتي الحمراء، أنطلقُ إلى إنكلترا» تخرج من شفتيه، حتى وجد نفسه محلقاً فوق قمم الجبال. حاذر ألا ينطق بحرف واحد كي لا يقع وتنتهي رحلته مباشرة (وذلك حسب معرفته بأصول تحليق الساحرات). قطعوا خلال وقت قصير جبال «ويكلو»، والبحر الآيرلندي، وجبال «ويلز»، حتى وصلوا بسرعة الريح إلى باب إحدى القلاع. وانتبه شيمس أنه لولا مرافقته للساحرات لكان جثة هامدة في تلك اللحظة، بعد دخوله في خشب باب البلوط،

(1) الالفية نبتة طبية (ذات الألف ورقة) أوراقها مغطاة بالوبر، وزهرتها صفراء شاحبة ذات رائحة عطرة. السذاب: نبتة طبية ذات أوراق مرة (م).

وخروجه من الجهة الأخرى، ثم عبور ثقب الباب المقابل، وهبوط عدة درجات، قام بعدها بعبور ثقب باب مستودع الخمور، وكل ذلك حتى قبل أن يستوعب بوضوح ما الذي يحدث معه. وحين استعاد وعيه كاملاً، وجد نفسه جالساً برفقة الساحرات، محاطاً بالكثير من الضوء المشع، حاملاً مثلهن كأس شرابه في يده. وحين بدأن بالرقص واللهو فعل مثلهن، وقد عزا ذلك لتأثير القبعة الحمراء التي حولته إلى شخص بطبيعة مشابهة لطبيعة الساحرات الناقصة.

وبعد استغراقهم جميعاً، ومن ضمنهم شيمس، بالرقص والشرب فقدوا وعيهم. واستيقظ شيمس بعد مدة شاعراً بأنه كان مُلاحقاً، وقد رأى نفسه يُحاصر ويُجر على الدرجات، ثم يُرغم على المثول أمام سيد القلعة. وبما أن ذلك كان يحدث في القرون الوسطى[1]، فقد حُكم عليه بالإعدام شنقاً حالما يتم الانتهاء من نصب المشنقة. وجد شيمس نفسه في عربة تجره نحو رحلته الأخيرة، وقد وضعوا على ظهره وصدره قطعة قماش، خطّوا عليها كلمات تصفه بالمجرم الخطير، الذي تجرّأ على سرقة الخمر من مستودع سيد القلعة في كل ليلة، لمدة شهر كامل. وأكثر ما

(1) تميزت فترة القرون الوسطى في أوروبا بنصب الكثير من المحاكم لكل من يتعاطى السحر والشعوذة، والحكم عليهم بالإعدام شنقاً (م).

فاجأه أن امرأة من الحشد خاطبته باسمه وبلغته الأصلية، قائلة: «ستموتُ يا شيمس المسكين، لأنك في مكان غريب من دون قبعتك الحمراء».

منحته كلماتها بعض الأمل والشجاعة، فاستدار إلى سيد القلعة، وسأله بأدب أن يسمح له بالموت مرتدياً قبعته الحمراء التي افترض أنها سقطت عن رأسه في مستودع الكحول. أُرسل خادم لأحضار القبعة التي ما إن اعتمرها شيمس حتى برقت عيناه بالسعادة. سُمح له بإلقاء كلمة للدفاع عن نفسه فبدأها قائلاً: «يا معشر الجن الطيبين، خذوا حذركم مني». ثم أضاف على عجل: «باسم الألفية والسذاب، وقبعتي الحمراء، أنطلقُ إلى إنجلترا».

ملأت الخيبة قلوب الحاضرين الذين تابعوه بأنظارهم وهو يحلق بسرعة خارقة، ثم يختفي في قلب السماء. وأما سيد القلعة فقد انتابه الحزن الشديد، ولم يقوَ على إعدام أي رجل، لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة.

اعتراف توم بورك
توماس كروفتون كروكر

يعيش توم بورك في بيت ذي سقف منخفض ومتطاول بحيث يبدو من الخارج أشبه بإصطبل كبير في أسفل الهضبة، عند التقاء الطريق الجديد، القادم من بلدة «كيورث» مع الطريق القديم، القادم من بلدة «لزمور». وقد خوّلته الثروة الطائلة التي ورثها عن أبيه، الانتماء بجدارة لفئة المزارعين الأغنياء. ليس ذلك وحسب، بل أورثه أبوه شرفاً لم يتمتع به إلا قلة من الناس وهو القدرة على التواصل مع المخلوقات الغامضة الذين يطلق عليهم اسم «الأناس الطيبين»[1].

ويبلغ توم من العمر خمسة وخمسين عاماً. ويتمتع بصحة جيدة وحيوية لا بأس بها. وهو ذو شعر شائب تماماً ينتصب بكثافة عند جبهته مثل فرشاة الملابس الجديدة، أما عيناه فرماديتان صغيرتان براقتان، غالباً ما يُلاحظ مثلها عند الناس المتوسطي الذكاء. وإن أردت خوض رهان معه عليك التصرف

---

(1) الأناس الطيبون لقب للجن ورد في عدة نصوص أخرى من قبل (م).

كقائد عسكري يخطط لاحتلال بلد ما. فيجب أن تتحرك بسرعة وتبدأ بتنفيذ خطتك في السر قبل وقت طويل من إعلانها، هذا إذا أردت ضمان الفوز. فلو جئت إليه وطلبت منه مباشرة ما تريد، فسيردك خائباً بكل تأكيد. فتوم لا يرغب بخسارة أي شيء تحلم أنت بالحصول عليه. ولديه تلك الموهبة في جعلك تغادره بإحساس المنتصر الذي حقق ما يريده بعد أن يكرر أمامك عشرات المرات جملاً كهذه «جيد جداً يا سيدي» أو مثل «هذا صحيح تماماً يا سيدي» أو «أنا بغاية الشكر لحضرتك يا سيدي»، لكنك قد تعود إليه ثانية فتجد أنك أبعد ما تكون عن غايتك، وأنه خدعك بلطفه الخبيث، ولن ينّفذ إلا ما يدور في خلده فحسب. ورغم شخصيته هذه، بغض النظر إن كانت موروثة أم أنها مكتسبة من تجاربه كما يرجح بعضهم، فهو ليس بالحقود، وهذا ما يؤكده الكثيرون من معارفه المقربين. لقد ولد مُحباً للمال على ما يبدو (ومن يقدر على لومه؟) ومُحباً للسلطة، وواثقاً من نفسه، مع الكثير من الإحساس بالرضا والسرور بسبب نجاحه في أعماله وحياته بشكل عام. وهو يعتدّ بآرائه ويعتبرها قواعد راسخة قادته نحو التقدم والنجاح، فلديه على سبيل المثال قاعدة تؤكد على عدم تناول المشروبات الكحولية إلا في يوم الأحد، وأيام الأعياد والاحتفالات التي تحدث في محيطه بما فيها

مناسبات الزفاف أو الجنازات أو تلك التي تخص أصدقاء له، يبعدون أميالاً عن مكان إقامته. وهو شديد الحرص على حضور جنازات أصدقائه وعائلاتهم بشكل خاص، أكثر من حرصه على حضور حفلات التعميد أو الزفاف مثلاً. وهو يؤديها مفكراً بالفائدة المستقبلية التي قد يجنيها من حضور تلك الجنازات، بالإضافة لخوفه من شرور الأيام القادمة. وأما في تعامله مع الجن فيأخذ بعين الاعتبار قوتهم، وتقلب أمزجتهم الشديد، ويعرف أنهم يكافئون الأحياء أو يعاقبونهم بناء على ما فعله الأموات. و يقرن الكثيرون من الناس روح العطاء والكرم التي يُظهرها نحو الفقراء مثلاً، بتفكيره بتلك العلاقة مع الجن. و يحذو أفراد عائلته حذوه في ذلك، فنادراً ما خرج متسول من دارهم خالي الوفاض، أو لم يحظَ عابر سبيل قرع بابهم بالمأوى والطعام. وإن طلب أحد الجيران معونتهم في وقت الشدة والمرض يسارع توم لتأمين العلاج والغذاء والمأوى للمريض حتى يشفى. كما لا تبخل زوجته التي تهتم بشؤون المراعي، بمد العائلات الفقيرة بالحليب والزبدة وسواهما مجاناً في معظم الأوقات.

ويبدو أن هذا السلوك المعطاء لتوم وعائلته ليس وليد الخوف والإحساس بالواجب فحسب، وإنما هو مزيج من التعاطف

والإحساس بالشفقة اللذين نراهما عادة عند الفلاحين أكثر من سواهم، وغالباً ما يغلّفون تلك الطيبة بمواقف وأقوال يغلب عليها الطابع العملي الجاف، وهكذا يجب ألا نُسيء الظن بهم ونعتبرهم أجلافاً حين نسمع أحدهم يقول مثلاً: «حين تعقد صفقة جيدة، فمن العدل أن تتصدّق بجزء منها». لكن لم يكن من السهل دائماً إقناع توم بالتطرق للحديث عن علاقته بجماعة الجن، الذين تربطه بهم - حسب زعمه - صداقة قوية، والذين صرح بإيمانه بهم وبتقديرهم لذلك الإيمان عدة مرات، حيث لا يرفضون له طلباً إن دعت الحاجة، ولطالما أعانوه في تقديم المساعدة لجيرانه ممن عاكسهم الحظ وابتلوا بمصيبة ما. وهو لا يحب التبجح أو الثرثرة حول خدماته، ويعتبر أي شكر يتلقاه ممن يساعدهم أو من أقربائهم وأصدقائهم بمثابة احتقار لمواهبه وقدراته الروحية الخارقة. فهو يؤمن بأنه لا يؤدي خدماته إلا لمن يستحقها، وبناء عليه يجب ألا يُكافأ بأي شكر على الإطلاق.

وحدث مرة أن طُلب من جارة له، وهي (جنية طبيبة) اسمها أوين مساعدة فتاة فقدت الإحساس بساقها اليمنى. وتوجب على أوين من أجل علاجها القيام برحلة على ظهر دجاجة بيضاء لمسافة تزيد على ثمانية عشر ميل لزيارة أحد الجن. بعد انطلاق

أوين في تلك الرحلة وحين أوشكت على الوصول، شعرت الفتاة برغبة لا تقاوم في الرقص، فنهضت ورقصت أمام أعين أهلها المندهشة، وكأنها لم تكن يوماً مصابة. وحصلت أوين على مكافأة كبيرة من أهل الفتاة، وهو ما لم يكن توم ليقبله البتة، وقد سمعتُ عنه هذا من مصادر موثوقة. فمثلاً بعد مساعدته لإحدى المريضات كي تسترد قدرتها على النطق، والتي فقدتها بعد عودتها من جنازة قريب لها، رفض توم مجرد الحديث عن المكافأة أو الأجر، وقال إنه حتى لو عُرض عليه مقابل خدماته، مجرد تناول العشاء مع عائلة الفتاة، لما قَبِل، لأن الفتاة فقدت نطقها بسبب إساءة لحقتها في تلك الجنازة من أحد الجن المنتمين لعائلته نفسها، وعليه التكفير عن ذلك الخطأ بإعادة النطق لها من دون حاجة حتى لأن يشكر.

وتقريباً في الفترة نفسها التي حدثت فيها تلك القصة مع الفتاة، كان صديقي مارتن، الذي هو جار لتوم أيضاً، مشاركاً معه ببعض الأعمال التي اختصما حولها، واضطر مارتن للجوء إلى القضاء لحل النزاع بينهما. وتمكنا بعدها من الإتفاق وفضا خلافهما بطريقة أرضت الطرفين. ثم التقيا في بيت مارتن للاحتفال بالمناسبة. دعا مارتن توم لتناول كأس من الشراب، أملاً

في جعله يفشي بالقليل من أسراره حول علاقته بالجن، وقواه الروحية الخارقة. فبادره قائلاً: «أتعلم يا توم، إعادتك النطق للفتاة بتلك السرعة والبساطة، أمر أثار فضولي ودهشتي».

فرد توم: «هذا صحيح يا سيدي، لكن تحتّم عليّ السفر مسافة بعيدة لأجل ذلك، لكن هذا ليس مهماً الآن». ثم قال وهو يستدير نحو السيدة مارتن: «بصحتك يا سيدتي». أجابت السيدة مارتن: «شكراً يا توم، لكنني علمت أن عائلتك نفسها تعرضت لبعض المشكلات المشابهة فيما مضى».

فقال توم: «نعم يا سيدتي، حدث ما يكفي من المشكلات، لكنكِ كنت طفلة آنذاك». قاطعهما صديقي مارتن قائلاً: «تعال يا توم، خذ كأساً أخرى. أتمنى أن تخبرنا سبب وفاة أولادك، سمعتُ أنهم سقطوا واحداً بعد الأخر ضحية مرض غامض، وأن ابنك الأكبر قد نجا بأعجوبة بعد أن فقد الأطباء الأمل من شفائه». أجاب توم: «ما تقوله صحيح يا سيدي، فعندما ابتلي ابني الرابع بمرض غريب، أعلن والدك الطبيب، رحمه الله، مع زميله الطبيب بيري، عجزه عن شفائه، وأخبرني أنه حتماً سيلاقي مصير إخوته إن رغب الجن بأخذه مثلما أخذوهم. لكن الجن تركوه لي، ولو كنت أعرف أنهم وراء موت أطفالي الثلاثة لما وثقت بأي منهم الآن».

فسأله مارتن: «وكيف اكتشفت ذلك يا تـوم؟». أجاب توم: «سأخبرك كيف. عندما قال لي أبوك الكلام الذي ذكرته لك الآن، مضيت إلى «بوهرين»[1] التي تمتد على ضفة النهر، قريباً من أرض «ديك هيفي» المعزولة، للاختلاء بنفسي وتصفية ذهني، فقد كنت بغاية الأسى والحزن لمعرفتي أنني سأخسر طفلي، زد على ذلك خوفي من مواجهة زوجتي بالأخبار المؤلمة، وهي التي تحب الصغير لدرجة العبادة، ولم تنته بعد من صلواتها على روح أبنائها الآخرين. وفي طريقي إلى «بوهرين» قابلت بوكوف العجوز الذي اعتاد زيارة بلدتنا مرة أو مرتين في العام، وقضاء الليل في إصطبلنا. سألني عن حالي، فقلت: «بأسوأ حال يا جايمس». فقال: «كم يؤسفني سماع هذا، لكنك رجل أحمق يا سيد بورك، سيتحسن ابنك لو أنك تفعل ما ينبغي فعله».

فسألته: «وما الذي يجب علي القيام به بعد يا جايمس، جميع الأطباء أعلنوا استسلامهم؟». فقال: «لن يعرف الأطباء علة ولدك أكثر من معرفتهم سبب توقف بقرة عن إدرار الحليب، لكن اذهب لفلان .. وأخبرني باسمه، وسترى ما سيقوله لك».

سأل السيد مارتن: «ومن هو فلان هذا يا توم؟».

---

(1) Bohereen or bogheen الزقاق أو الممر الضيق الأخضر (المؤلف).

أجاب توم بنظرة ارتياب: «لا يمكنني التصريح باسمه يا سيدي، ومع ذلك فأنت تراه في أغلب الأوقـات، وتسكن قربه، وقد كانت بيني وبينه قضية في المحكمة، ولو أنني ذهبت إليه منذ البداية لما خسرت أطفالي، وهذا ما أكده جايمس أيضاً، فذهبت إلى ذلك الشخص، وجاء برفقتي إلى البيت. ونفذت كل ما طلبه مني. أخرجت كما أوصاني الولد الصغير من البيت مباشرة، و مهدت له ولنفسي سريراً في الإصطبل حيث تنام الأبقار. ونمت بجانبه فوق القش بين بقرتين وأغفا هو أيضاً. ثم بعدها بدأ يتقيأ بغزارة، عفوكم، كأنه ابتلع نهراً، وبدأ صدره يؤلمه وضاق تنفسه وصار كالشهيق الحاد، وبتلك الحالة الصعبة قضى الليل كله. اعتقدت في منتصف الليل أنه ميت لا محالة، وكنت على وشك الذهاب لاستدعاء ذلك الشخص الذي أخبرتك عنه، مفكراً بأن أصدقائي الجن يرغبون بأخذ الولد مني. كنا وحيدين في الإصطبل. ولا ينير المكان سوى ضوء شمعة شحيح، ولا يسمع سوى صوت مضغ الأبقار للعلف، لكن حين هممتُ بالنهوض مثلما أخبرتك لإحضار ذلك الشخص، رأيت خيالاً يشبه المرحوم أبي يدخل ويقترب مني. وقف لصقنا تماماً وفتح يديه، ماداً يمناه نحوي وتاركاً اليد الأخرى مستندة لعصاه التي اعتاد التعكز عليها في أثناء

حياته. ثم أكد لي مبتسماً بألا أخاف، وطمأنني بأنني لن أخسر ابني. فسألته: «أهذا أنت يا أبي؟». لكنه لم يُجب. فقلت له: «إن كنتِ أبي فدعني أمسك يدك لأجل روح أطفالي الأحباء». فأعطاني يده وكانت طرية كيد طفل صغير، وبقي معنا زمناً يعادل ذهابك من هنا إلى البوابة عند الشارع العريض، ثم انصرف. وفي غضون أسبوع شفي ابني تماماً، وكأنه لم يمرض أصلاً، وهو الآن يتمتع بصحة لا مثيل له انطلاقاً من هذا البيت المبارك في «باليبورين» وحتى جبال «كيلورث».

قال السيد مارتن: «لكن يبدو لي يا توم أنك مدين لأبيك بشفاء ابنك أكثر منك لذلك الشخص الذي أوصاك جايمس بالذهاب إليه، أو هل تعتقد بأنه هو من توسط لك مع أعدائك من الجن وأن أباك..؟».

فقاطعه توم بورك بسرعة قائلاً: «أرجو معذرتك يا سيدي، لكن لا تسمهم أعدائي، وإلا لما احتملت ذلك، ولانصرفت في الحال. وأرجو ألا تعتبر كلامي مهيناً لك».

فقال السيد مارتن: «أؤكد لك أنني لم أقصد إهانتك أيضاً يا توم، لكن أليس صحيحاً ما قلتُه؟».

أجاب توم: «لا أستطيع إجابتك يا سيدي، فأنا لست حُراً، لكن بإمكانك الوثوق بأن أبي والشخص الذي أخبرتك عنه وأولئك الذين يعرفونهما قد حلوا المسألة فيما بينهم». وهنا صمت الجميع برهة، استغلتها السيدة مارتن لتسأل توم عن بعض العلامات الغريبة التي رافقت قصة موت أطفاله، وهي تتعلق بمعزاة وزوج من الحمام، والتي لمّح لها توم نفسه بغموض وبشكل عابر، في إحدى المرات.

قال توم وهو يستدير إليها: «أترين كم تحسنين التذكر. ما تقولينه صحيح تماماً يا سيدتي. لقد أعطيت أمك معزاة ذلك اليوم، طلبها الأطباء منها، لكن لماذا؟». هزت السيدة مارتن رأسها مؤيدة وتابع توم قوله: «لماذا؟ أتعرفين؟ سأخبرك لماذا. كانت تلك المعزاة بأفضل حال لمدة شهر كامل بعد أن أرسلت لأبيك في كيلان. وفي صباح تلك الليلة التي أخبرتكم عنها، وبعد أن استيقظ ابني المريض، رأيت أمه تقف عند زاوية المزرعة بالقرب من الطريق العام، تتطلع باتجاه زوج من الحمام كان يحلق قادماً من بلدة «كيلورث» باتجاه الكنيسة الواقعة أسفل الطريق، بالقرب من المكان الذي كانت واقفة فيه. ثم اتجه ذلك الزوج إلى ضفة النهر، وحط على مدخنة البيت المقابل لنا، محدقاً باتجاه زوجتي لعدة دقائق، ثم طار إلى

النهر، وبعد ذلك جاء إلى حافة جدار الإصطبل الذي كنتُ أنام فيه مع طفلنا. وهل تعتقد أن زوج الحمام فعل ذلك صدفة، هكذا دون قصد يا سيدي؟». أجاب مارتن: «بالتأكيد لا يا توم». تابع توم قائلاً: «جاءت زوجتي إلي، خائفة تبكي، وأخبرتني بما رأت. فقلت لها اصمتي أيتها الحمقاء. إن كل ما يحدث في صالحنا. ماذا تعتقدين يا سيدتي؟ المعزاة التي أعطيتها لأمكِ، والتي شاهدها جاك كرونون ترعى بمرح ونشاط قبل شروق صباح ذلك اليوم، سقطت ميتة دون سبب واضح أمام عيني جاك في اللحظة نفسها التي طار فيها زوج الحمام من أعلى البيت إلى البلدة ثم إلى طريق لزمور، وذلك حين رأته زوجتي كما أخبرتك». قال السيد مارتن: «ما أغرب هذا بالفعل يا توم، أتشرح لنا لِمَ بالضبط؟».

أجاب توم: «أتمنى لو أستطيع يا سيدي، لكنني لا أملك الخيار في إخباركم إلا بقدر ما هو مسموح لي».

قال السيد مارتن: «لقد قلتَ إنك كنتَ على معرفة مسبقة بالرجل الذي ساعد في شفاء ابنكَ على ما أظن».

رد توم: «صحيح يا سيدي، وكان بيننا محكمة، وهذا لا علاقة له بالقصة، لكن أتريد أن تعرف كيف حصل على مهاراته؟».

قال مارتن: «أخبرنا أرجوك».

وأضافت السيدة مارتن: «أيمكنك اطلاعنا على اسمه الأول حتى نتعرف إليه أكثر من خلال القصة؟».

فصمت توم لحظة مفكراً في الطلب ثم قال: «أعتقد أنه بإمكاني إخباركم باسمه، إنه باتريك، وقد كان على الدوام ولداً ذكياً لطيفاً ومن الممكن أن يصبح طبيباً رائعاً[1]، لو تابع نشاطه واهتمامه. أول مرة التقيته يا سيدي كان في جنازة أمي. كنت في مأزق كبير لأني لم أعرف أين عليّ أن أدفنها، فقد نشب نزاع بين أهلها (من الناس الطيبين) وأهل أبي (من الناس الطيبين أيضاً) حول الكنيسة التي ستتم فيها الصلاة على روحها ومن ثم دفنها. واستمر النزاع بينهم ثلاث ليال دون التوصل إلى حل. وقد أثار ذلك استغراب جيراني الذين بدأوا يتساءلون متى سأقوم بدفن أمي. وباختصار جاء باتريك وقال لي إنه حل الخلاف وقرروا دفنها في كنيسة كيلكرمبر مع جماعة أبي».

قالت السيدة مارتن محاولة إخفاء ابتسامتها: «لقد كان صديقاً رائعاً يا توم، لكنك كنت على وشك إخبارنا كيف حصل باتريك على مهاراته الخارقة».

(1) الجني الطبيب، من أصل بشري خطفه الجن ودربوه فصارت له الكثير من قدراتهم الخارقة (كما تروي الحكايات) (المؤلف).

فردّ توم: «فعلاً سأفعل ذلك بطيب خاطر. بصحتك يا سيدتي. يبدو أنني أشرب الكثير من هذا الخمر يا سيدي، لكن الحق يقال إنه سلس، وينساب في الحلق مثل الزيت، ولكن ماذا كنتُ أقول قبل قليل، نعم، نعم باتريك، منذ حوالي سنة كان عائداً للبيت في وقت متأخر وكان يمشي على ضفة النهر مقابل الهضبة الخضراء بالقرب من «بالي هيفن» ويبدو أنه قد شرب قليلاً وأحسّ ببعض الخفة والمرح، لكنه لم يكن مخموراً. حدث ذلك في شهر أغسطس حيث القمر مشع والنهر منساب بنعومة وصفاء، والهدوء يلفّ كل شيء، فلا يُسمع إلا خرير الماء حين يرتطم بخشب النواعير على بعد ميل في كعب النهر، وكذلك صوت ثغاء الخرفان التي ترعى على ضفة النهر المقابلة. فجأة سمع باتريك صوت مجموعة من الناس ينفجرون ضاحكين بجنون، وتناهى إلى سمعه صوت عزف على المزمار. انتبه أن الصوت يصله من الضفة الأخرى بالقرب من المخاضة[1] وحين أنعم النظر، رأى مجموعة كبيرة من الناس يرقصون فوق الهضبة الخضراء. وبما أنه مغرم بالرقص والشراب فقد نزع حذاءه وجوربيه على الفور وعبر المخاضة. وحين وصل إلى الجهة المقابلة لبس حذاءه وجوربيه، وانخرط مع الراقصين بكل سهولة، وقد قرر أن يريهم مهارته، وبالفعل يا سيدي فقد

(1) المخاضة: موضع من النهر يسهل خوضه (م).

كان راقصاً بارعاً، لا ينافسه شاب في المنطقة كلها. لكنه دُهش من لياقتهم وليونتهم العجيبتين، كأن لا عظام في أجسادهم، مما جعلهم لا يكترثون لرقصه هو الذي بدا بالنسبة إليهم كما لو قارنت رقصي برقص تلك الآنسة هناك. فأحسّ بالخجل من نفسه وخاصة عندما لمح عجوزاً يراقب ما يحدث بامتعاض، ثم اقترب منه فيما بعد وخاطبه باسمه قائلاً: «باتريك، أرى أنك تُحس بالإخفاق، ولا عجب من ذلك فليس لديك صديق واحد هنا ليشجعك، لكن لا عليك فأنا صديقك وصديق والدك من قبلك، وأظن أنك أفضل منهم جميعاً، رغم أنهم يعتقدون العكس. فاذهب لوسط الحلقة، واطلب أغنية تحبها لترقص على لحنها. وصدقني إن أفضلهم لن يرقص بمثل براعتك إن فعلت ما أطلبه منك». شعر باتريك بأن عليه إطاعة الرجل، ففعل مثلما طلب منه، وبدأ يرقص على الأرض بشكل أذهلهم جميعاً، ثم صعد إلى طاولة كبيرة وأخذ يلف ويدور ويقرع الخشب بقدميه بمهارة لا مثيل لها، جعلتهم يتلفتون مذهولين. بعضهم مدحه ووصفه بأفضل راقص رأته أعينهم، والبعض كرهه وغار منه».

سأل السيد مارتن: «وما سر براعته ونجاحه في تلك اللحظة؟».

أجاب توم: «لم يستطع السيطرة على نفسه يا سيدي. وعندما انتهى من الرقص طلبوا منه أن يرقص أكثر، لكنه كان متعباً وفشلوا في إقناعه. وحين ألحوا عليه غضب وأقسم إن لم يتوقفوا عن إزعاجه فلن يرقص ثانية البتة، ولم يكد ينطق تلك الكلمات، حتى وجد نفسه وحيداً مع بقرة بيضاء ترعى إلى جانبه».

سأل السيد مارتن: «وهل اكتشف يوماً سر تلك الموهبة الخارقة المفاجئة؟».

قال توم: «سأخبرك عن ذلك في وقته يا سيدي. عندما رجع باتريك إلى بيته أحسّ أن جسمه يرتعش فذهب تواً للنوم، وفي اليوم التالي أُصيب بحمى وصار يهذي ولم يتمكن أحد من فهم ما يقوله، ويئس الأطباء من شفائه. وبعد عشرة أيام وهو على هذه الحال، حضر أحد جيرانه بصحبة صديقه ولا أستطيع إخبارك باسم عائلته سأخبرك عن اسمه فقط، وهو داربي. وما إن وقعت عينا داربي على باتريك، حتى أخرج من جيبه زجاجة صغيرة مليئة بعصير الأعشاب، وسقاه منها. كرر ذلك كل يوم لثلاثة أسابيع، حتى استعاد باتريك بعض صحته، فصار بمقدوره أن يمشي، لكنه احتاج إلى وقت أطول كي يستعيد كامل عافيته ويتوقف عن الهذيان».

قال السيد مارتن: «أعتقد أنه حصل على مهاراته من رفيق كهذا الرفيق الذي شفاه». رد توم: «هذا كل ما هنالك يا سيدي. داربي أخبره أن أصدقاءه الجن راضون عما فعله تلك الليلة حين رقص بجنون، وقد استدعوه لتعليمه المزيد ولذلك اختلقوا هذه الحمى، وقد فعلوا ذلك بمساعدة ذلك الرجل الذي شجعه في الحفلة».

قال السيد مارتن: «سمعتُ الكثير من القصص الغريبة عن تلك الهضبة الخضراء بجانب «بالي هيفن»، أليست مسكونة بالجن كذلك يا توم؟».

أجاب توم بورك: «يمكنك قول ذلك يا سيدي. وباستطاعتي إخبارك الكثير عن ذلك المكان. فقد حدث لي عدة مرات أثناء جلوسي بالقرب منه بينما أتأمل ضوء القمر، عند النهر، أن رأيتهم يلعبون بالكرة، منقسمين فريقين، واحد يعصب الرأس بمنديل أبيض، والآخر بمنديل أحمر، وكاد الصباح يشرق من دون أن يغلب أحدهم الآخر. والدكِ أيضاً يا سيدتي رآهم يلعبون هناك».

قال السيد مارتن: «سمعتُ يا توم أن كنيسة كيلكرمبر مكان مفضل للجن أيضاً مثلما هي هضبة «بالي هيفن»؟».

فرد توم مخاطباً السيدة مارتن: «ألم تسمعي يا سيدتي بما حدث مع ديفي روتش في باحة تلك الكنيسة؟»، ثم استدار إلى السيد مارتن وقال: «حدث ذلك قبل أن يلتحق بخدمتكَ بوقت طويل يا سيدي. كان يحضر جنازة في كنيسة كيلكرمبر وقد لفت انتباهه عدم تمكنه من رؤية أي وجه مألوف في الحشد، باستثناء رجل واحد كان قد توفي منذ وقت طويل. واستغرب ديفي أكثر حين رأى الحاضرين يتحلقون حول عازف المزمار ثم ينطلقون بالرقص كأنهم في حفلة عرس وليسوا في مأتم. رغب ديفي بالمشاركة لكنه لم يكن يتقن الرقص. تقدم منه ذلك الرجل ذو الوجه المألوف، والذي هو ميت في الحقيقة وقال له: «اختر شريكة لتراقصك يا ديفي، وأرهِم شطارتك. لكن إياك أن تقبّلها».

فوعده ديفي بألا يفعل، وقام وانحنى لأجمل فتاة في الحلقة، وطلب منها أن تراقصه. حاز رقصهما على إعجاب الجميع لكن عندما انتهيا نسي ديفي وعده بتأثير الكحول، وقام بتقبيل شريكته كما درجت العادة. فتلقى لطمة على شفتيه، لم يعرف ما حدث بعدها، فقد سقط إلى الأرض مغشياً عليه، ولم يرجع لبيته إلا في صباح اليوم التالي».

عندما أنهى توم قصة ديفي بدا للجميع أن روحاً غريبة تلبسته ودفعته ليحكي المزيد من قصص الجن، لكنه بدأ يخلط الأحداث والأسماء والأماكن وكأنه يهذي. ثم لوى عنقه للخلف وتمتم شيئاً كأنه يقول: «لا أستطيع متابعة الكلام». ثم مد ذراعه فوق الطاولة، ووضع الكأس التي كانت في يده، ليستدير بعدها ويخطو باتجاه الباب. وقبل أن يخرج التفت ليودّع السيد والسيدة مارتن، لكن الكلمات وقفت في حلقه، كأنه يختنق، فشهق وانصرف بصمت. وليس لدي أدنى شك بأن توم رجع بيته سالماً تلك الليلة. وحتى الشهر الماضي حسب علمي ظل «بكامل صحته الجسدية والعقلية كأي رجل سليم من عمره في مقاطعة كورك». وهذه جملة اقتبستها مباشرة من كلامه هو.

كيف سُحر البودينغ[1]
وليام كارلتون

مالي رو رافرتي هو ابن – أقصد هي ابنة – العجوز رافرتي، الذي تميز بعادة غريبة هي ارتداء رأسه تحت قبعته. والحقيقة أن العائلة كلها كانت غريبة الأطوار وهذا ما يعرفه كل من احتك بهم وعرفهم عن قرب. فيقولون مثلاً إنهم عائلة تمشي حافية، حين لا تنتعل أحذية، لكني أخشى الحديث حول هذه النقطة كثيراً، لأنني سمعتُ آراء متناقضة حولها، لذلك سأتجاهلها حتى لا أصرح بشيء قد يسيء لسمعتهم. حسناً إذن لنرجع للعجوز رافرتي الذي له ولدان هما بادي ومالي. أف، ما الذي يضحككم؟ قصدتُ عنده ولد وبنت، ويعتقد الجميع أنهما أخ وأخت، ومثلما تعرفون قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون. وقد انتشرت عنهما الكثير من الأقاويل البغيضة التي لا أرغب بذكرها الآن، فمثلاً يُقال إن بادي وأباه حين يمشيان يضعان قدماً خلف الأخرى مثل سمك السلمون، وقد سمعت الكثير من الهمس حول مالي التي اعتادت أن تنام مغمضة العينين، وبكل

(1) حلوى تعد من دقيق الأرز مع الحليب والسكر (تشبه الأرز بالحليب أو المهلبية) (م).

الأحوال هذه عادة لا تؤذي أحداً سواها، لأنها حين تغلق عينيها لا تقدر على الرؤية أمامها مثلما ترى فتاة مفتوحة العينين. ومالي رو فتاة مرحة، جسدها ضخم، مكتنز، وشعرها جميل وكثيف وأحمر، وربما لون شعرها هو سبب تسميتها برو (الحمراء). ولخديها وذراعيها اللون نفسه تقريباً. وأما قبضتاها فهما قويتان مستعدتان للضرب دائماً، مما يؤكد تحدّرها من تلك العائلة ذات الدم الحامي والمزاج الحاد.، وفي الوقت نفسه كان الولدان نعمة، فقد عرفت مالي كيف تستخدمها للدفاع عن نفسها ضد الأقاويل التي تُحاك حولها وحول عائلتها. وباختصار لا يعيبها إلا حَول خفيف في إحدى عينيها مما جعل زوجها - حين عثرت على زوج - يعتقد أنه باستطاعتها رؤية ما يدور خلفها. وأما كيف حصلت على ذلك الزوج فأخشى القول إن لقاءهما كان غريباً أيضاً، فقد أتهم بالكذب إن فعلت. التقت مالي بجستي جيلسباي وهو اسم زوجها المستقبلي أثناء حفلة في بيت أحد الجيران. وكان جستي ينتمي لكنيسة مختلفة عن كنيستها، أطلق الناس على أفرادها اسم «الفم الأسود» أو الكنيسة المشيخية ولم يكن متديناً. وكان جستي مثل مالي يتمتع بمظهر حسن، خاصة إذا ما شُوهد في العتمة، وهو بالفعل الوقت الذي وقع كلاهما في حب الآخر. ولم يمضِ على تعارفهما وقت طويل حتى جرى

الإعداد للعرس الذي حُدد موعده في أحد الآحاد. وبسبب ندرة حدوث زواج مشابه بين أفراد الكنيسة الكاثوليكية وأفراد كنيسة «الفم الأسود» فقد لاقى خبر زفافهما اعتراضاً من الطرفين. وخاصة من خال مالي العجوز هاري كونولي، أو الملقب بالجني الطبيب، الذي حاول القيام بكل ما في وسعه لمنع ذلك الزواج. ولكن أصدقاء العروسين كانوا له بالمرصاد وفي النهاية تم تحديد يوم الأحد كما ذكرتُ موعداً للزفاف. وهكذا في اليوم الموعود، ذهبت مالي لكنيستها، وجستي لكنيسته، على أن يلتقيا بعدها في بيت أبيها جاك رافرتي، مع القس موسورلي، الذي سيتسلل بعد القداس ليلتحق بهم على طاولة العشاء. وأثناء ذلك لم يبق أحد في البيت سوى جاك رافرتي وزوجته كيتي، لإعداد الوليمة التي من المفترض أنها ستكون بمنتهى الفخامة.

وبينما بدأت السيدة رافرتي تجهز لتحضير «البودينغ» دخل أخوها هيري كونولي صائحاً متسائلاً: «ما الذي يحدث هنا الآن بحق السماء!». فردت السيدة رافرتي: «أف. ولِمَ تقول هذا يا هاري؟».

«تسألين لماذا؟ ألا تعلمين أن الشمس غارقة في بحر من الرغوة، والقمر يرتجف. العاصفة ستضرب عما قريب وأنتما هنا

غير مكترثين. هيا اخرجا وارسما علامة الصليب ثلاث مرات باسم العناصر الأربعة المقدسة[1] مثلما أوصى الأنبياء. اخرجا وحدقا في الشمس وستعرفان سر الوضع».

انصاع جاك وزوجته للأمر وخرجا مستعجلين كصبيين أحمقين، ثم وقفا على بلاطة متلاصقين ليراقبا ويفهما ما الذي يجري في السماء. سألت الزوجة: «أترى شيئاً يا جاك؟». أجاب الزوج: «لا، اللعنة على عيني إن أبصرتا أي شيء على الإطلاق، حتى الشمس نفسها مختفية خلف الغيوم. لا أتوقع حدوث أي شيء».

فقالت الزوجة: «لكن يا جاك لو هذا صحيح، لما رأينا هاري، الخبير بمثل هذه الأمور، متخوفاً هكذا».

ردّ جاك: «إن للأمر علاقة بهذا الزواج على ما أظن، فزواج مالي من الفم الأسود يخالف كل التقاليد الدينية. لكن ما العمل الآن؟ ومع ذلك لو نظرتِ سترين حتى الشمس تواري نفسها كأنها لا تريد مباركة هذا الزواج».

فقالت الزوجة وهي ترمش بسرعة: «إذا كان جستي راضياً بمالي فهذا يكفي، فهو من سيعيش معها، على كل حال دعنا الآن ندخل ونسأل هاري ما علة الشمس».

(1) الماء والتراب والهواء والنار (م).

«قل لنا يا هاري ما مشكلة الشمس، فلن يعرف أحد غيرك هذه الأسرار».

رد هاري مبتسماً ابتسامة مقتضبة غريبة: «آه، الشمس منحرفة عن مسارها انحرافاً كبيراً، لكن لا عليكما، فقط سأتنبأ لكما بعرس أكثر متعة مما تتوقعان». قال هذا ثم اعتمر قبعته وغادر البيت. استراح الزوجان لأقوال هاري، وبعد أن صاحا خلفه يذكرانه بعدم التخلف عن موعد العشاء، انصرفا كل إلى عمله. فجلس جاك يدخن، والزوجة عادت لطبخ «البودينغ». ثم لاحظ جاك حين نظر باتجاه زوجته أن القِدر الموضوعة على النار تتحرك بطريقة غريبة كأنها ترقص، فخاطب زوجته قائلاً: «كيتي، ما الذي تحتويه هذه القِدر بحق السماء؟».

أجابت الزوجة: «لا شيء إلا البودينغ لماذا تسأل؟».

فقال جاك: «إن كان بإمكان القُدور أن ترقص فهذه القِدر ترقص الآن، انظري إليها». وبالفعل حين دققت النظر وجدت أن القِدر تهتز للأسفل وللأعلى، ذات اليمين وذات اليسار، كأنها ترقص بفرح، كقرد صغير، ولاحظت أن «البودينغ» هو الشيء الذي يرقص ويحرك القِدر. صاح جاك: «أقسم أن شيئاً حياً في داخلها، وإلا لما اهتزت بهذا الشكل». وأكدت الزوجة كلامه قائلة: «حقاً يا جاك، كأن رجلاً دخل فيها، ما العمل الآن؟».

وفي اللحظة نفسها ارتفع غطاء القِدر، كأن رأس مخلوق في الداخل يرفعه ويطل منه وخرج «البودينغ» قافزاً إلى الأرض. ارتعب الزوجان من المنظر فدعيا معاً: «باسم الأرواح الخيرة، لا تقترب منا، لا أحد هنا آذاك». تحرك «البودينغ» في مكانه متلفتاً، فقفز جاك إلى كرسي كانت بقربه ثم إلى الطاولة ليتجنبه، فابتعد «البودينغ» باتجاه كيتي، التي صارت تتلو صلواتها في تلك اللحظة بأعلى صوتها بينما «البودينغ» الملعون يتراقص من حولها ويتقافز بسرور كأن خوفها أمتعه. صاح جاك من بعيد: «أه لو أستطيع الوصول إلى المذراة لجربتها على عظامه».

فردت عليه كيتي: «لا لا، أظن أن جنياً متلبساً فيه، دعنا نكلمه بلطف، فمن يعلم قد يؤذينا لو أغضبناه». ثم بدأت تخاطب البودينغ: «اهدأ، اهدأ، لا تؤذ أشخاصاً لم يكن في نيتهم إيذاءك. نحن لم نسحرك. صدقني إنه هاري كونولي. الحق به إن أردت واعف عن امرأة مثلي لا تحتمل كل هذا الخوف».

ويبدو أن «البودينغ» سمع كلامها فابتعد عنها واتجه إلى جاك، الذي كان مثل زوجته يؤمن بوجود جني في داخله، فقرر ملاطفته ومخاطبته بطريقة لبقة، مثلما فعلت هي. خاطبه قائلا: «أرجو من جنابك تصديقنا، زوجتي أخبرتك الحقيقة. ونحن

ممتنون لحضرتك لأنك لو لم تكن مؤدباً مثل أي سيد محترم لكنتَ تصرفتَ بطريقة أخرى. الشخص الذي عليك ملاحقته ذهب من تلك الطريق، فلو أسرعت خلفه الآن ستلحق به، وشكراً على هذه الرقصة الرائعة التي أتحفتنا بها، وفقك الله وسرّع من خُطاك». بدا على « البودينغ» أنه استوعب كلمات جاك، فانطلق خلف هاري من الطريق التي أشار جاك إليها. ودفع الفضول الزوجين للحاق به، كي يريا ما سيترتب على تلك القصة.

وقد تصادف أنه يوم أحد، مما يعني ازدحام الطريق بأهل البلدة الذاهبين إلى الكنيسة أو العائدين منها. و قد لحق بجاك وزوجته كل من رآهما يركضان وصاحوا من خلفهما: « قل لنا يا جاك ماذا يحدث؟ يا كيتي، أخبرينا ما معنى هذا؟». فأجابت كيتي: «إنه البودينغ، لقد سُحر وهو يُلاحِقُ ..». وصمتت لحظة، فلم تكن راغبة بذكر اسم أخيها ثم تابعت: «يُلاحِقُ الشخص الذي سحره».

وحين انتبه جاك أن بإمكانه الآن مطاردة «البودينغ» بمساعدين آخرين، طلب من كيتي العودة للبيت لمتابعة التحضير للوليمة والقيام بطهي «بودينغ» جديد. وفكر باستعارة مذراة من جاره بادي. وافقت كيتي ورجعت للبيت

بينما تابع هو ونصف أهل البلدة، من كاثوليك وبروتستانت أو من جماعة الفم الأسود، ملاحقة «البودينغ» المسحور بعد أن تسلح كل منهم بما وقعت عليه يديه من أدوات وأغراض حادة. ركض «البودينغ» المسحور بأقصى سرعته متملصاً من ضرباتهم بخفة وحذق. حاول أحدهم أن يقطع جزءاً منه بالمنجل لكنه فشل، وبدلاً من ذلك كسر منجله، وآخر طوح بمذراته فارتدّت إلى الخلف كاللولب وكادت تقص عنق واحد من المطاردين، وعلا ضجيجهم. سأل أحدهم: «أين ذهب؟».

وقال آخر: «أقسم بحياتي أنه في طريقه للصلاة مع جماعة الفم الأسود».

وصرخ ثالث: «سأخطف روحه إن كان بروتستانت».

وقال آخرون: «إن التفت إلى اليسار اقطعوه واعملوا منه كعكاً، فلن نسمح بوجود بودينغ بروتستانتي بيننا».

وهكذا احتدم الجدال بينهم، وكاد يتحول إلى معركة لولا أن «البودنغ» استدار وأخذ طريقاً مختصرة باتجاه الكنيسة البروتستانتية، فصاح الجميع مستنكرين أن يكون ذلك «البودينغ»

بروتستانتي. صرخت عدة أصوات قائلة: «إنه من الويسليين[1]، وبكل الأحوال لن نسمح له بوضع قدمه في الكنيسة، سنبقر بطنه بالمذراة».

وعندما أوشكوا على محاصرته، وحشره في زاوية بين جدارين من جدران الكنيسة، تملص منهم وفر مبتعداً وغطس في النهر بخفة كقشرة بيض. حينها تفرق الجميع عائدين إلى بيوتهم وهم منشغلون بالتفكير بذلك «البودينغ» وما عساه أن يكون وأين يمكنه الاختفاء. ولو أن جاك وزوجته صرحا بشكوكهما حول علاقة هاري كونولي به، وبإمكانية أن يكون هو من سحره، لعرف القرويون كيف يأخذون بثأرهم منه عوضاً عن ذلك «البودينغ» الجبان.

وخلال ذلك الوقت الذي قضاه الزوج في الملاحقة كانت كيتي تعد «بودينغ» جديد بحجم الذي هرب، ثم أخذته لبيت جارتها زوجة بادي كي تطهوه على نارها وتوفر موقدها لطهي أصناف أخرى لأجل الوليمة. ومر النهار بسلام وقد تم عقد قران مالي على جستي، وعادا للبيت مع أصدقائهما الذين تفرقوا هنا وهناك، يتسامرون ويضحكون ويناقشون قصة هرب «البودينغ»

(1) الويسليين جماعة تشارلز وجان ويسلي الذي أسس لأتباع الكنيسة البروتستانتية في القرن الثامن عشر في أوروبا (م).

التي أصبحت على كل لسان في البلدة. ومع بدء اقتراب موعد العشاء وبينما كان بادي سكانلان يجلس مع زوجته قرب الموقد في داره يراقبان «البودينغ» البديل، وإذ بهاري كونولي يدخل عليهما مثل عاصفة قائلاً: «ما الذي يحدث هنا الآن بحق السماء!». فردت السيدة سكانلان: «أف ولِمَ تقول هذا يا هاري؟».

«أتسألين لماذا؟ ألا تعلمين أن الشمس غارقة في بحر من الرغوة، والقمر يرتجف. العاصفة ستضرب عما قريب وأنتما هنا غير مكترثين. هيا اخرجا وارسما علامة الصليب ثلاث مرات باسم العناصر الأربعة المقدسة مثلما أوصى الأنبياء. اخرجا وحدقا في الشمس وستعرفان سر الوضع». فقالا معاً: «حسناً سنخرج. لكن ما هذا الشيء الذي يلتف على ذيل معطفك يا هاري؟». فأجاب هاري بضيق: «اخرجا وصليا ألا تصيبنا صاعقة من السماء. إنها آتية».

يصعب تحديد من منهما خرج قبل الآخر، لكنهما، وأمام هيئة هاري الغريبة في تلك اللحظة، اندفعا باضطراب ليحدقا في السماء ويكتشفا ذلك الشيء الخارق الذي على وشك الحدوث، لكنهما لم يلمحا حتى ولو غيمة واحدة، وأبصرا الشمس تشع

بصفاء كعادتها. عادا ضاحكين، وفي نيتهما لوم هاري على مزاحه الثقيل، فالتقياه عند الباب، في طريقه للخارج، ورأيا خيطاً من دخان يخرج من ذيل معطفه. قالت زوجة بادي: «وحق روحي إن النار قد نشبت في ذيل معطفك. ستحترق يا هاري. ألا ترى الدخان؟».

رد هاري دون أن يتوقف: «ارسما علامة الصليب ثلاث مرات كما أوصى الأنبياء، املئي الإبريق يا إيدي...». وبعدها تلاشى صوته. انتبه الزوجان أن هاري يبدو كرجل يحمل شيئاً ساخناً أكثر من قدرته على الاحتمال، وذلك واضح من حركته السريعة، وتقلصات وجهه غير الإرادية.

سأل بادي: «ما الذي يحمله تحت معطفه؟». ردت الزوجة: «أدفع نصف عمري لأعرف الجواب. ربما سرق البودينغ. لا أستغرب قيامه بأي شيء». لكن حين فحصا القِدر وجدا أن «البودينغ» ما زال بأمان في داخلها، مما زاد في دهشتهما ولم يستطيعا التكهن بما قد يحمله هاري حقاً بتلك الطريقة المريبة. والأسوأ من ذلك ما الذي فعله في أثناء غيابهما في الخارج لمراقبة السماء. ومع هذا انقضى اليوم، وتناول الجميع العشاء ثم طلب جاك من زوجته إحضار «البودينغ» وقال للحضور: «يا سادة،

أتمنى ألا يرفض أي منكم تذوق ولو القليل من البودينغ الذي أعدته كيتي، وبالطبع لا أقصد ذلك البودينغ الراقص، وإنما واحداً جديداً محترماً». فقال القس مازحاً: «لن نفعل يا جاك. ومع هذا أرسل لنا ثلاثة أطباق إلى هنا، فربما نفكر بتذوقها على مضض». وقد قصد ثلاثة أطباق له وللقسين الآخرين. ففعل جاك ذلك، بعد أن رد على مزاحه بمزاح مشابه ثم قال: «نحن أناس بسطاء يا سادة، ولن تجدوا في ضيافتنا ما قد تجدوه في الأماكن الفخمة». ولم يكد ينهي كلامه حتى قال رجل الدين البروتستانتي بينما يغمس في فمه ملعقة كبيرة مملوءة «بالبودينغ»: «أفضّلُ وجبة من الأعشاب عليه».

في تلك اللحظة رأى الجميع كيف نهض القس والكاهن عن الطاولة آخذين بالرقص معاً بكل حيوية ومرح. في حين قدم من بعيد ولد من أبناء الجيران ليُعلمهم بمجيء صاحب القرية، الذي كان جاك أجيره، كي يبارك للعروسين. وما إن انتهى الصغير من كلامه حتى سُمع صوت ذلك السيد مخاطباً جاك بمرح: «آه يا جاك! ما الذي يعنيه كل هذا الصخب؟». فرد جاك: «علمي علمك يا سيدي، لكن أرجوك تذوق ولو ملعقة صغيرة من هذا البودينغ فلن تكتمل سعادة العروسين إلا إذا فعلتَ».

قال السيد وهو يضع ملعقة صغيرة في فمه: «حسناً يا جاك، من أجلهما فقط سآخذ ملعقة صغيرة، لكن يا جاك أترى كيف سكر باناجر[1]؟».

ردّ جاك: «أقسم لك أن لا أحد تذوق قطرة من الخمرة بعد، مع أن البيت محشو بها، والشباب هنا يموتون رغبة بها، لكني أوصيتهم أن يشربوا في مكان آخر. لا أستطيع تفسير ما أراه يا سيدي».

وما إن أنهى جاك جملته حتى انضم السيد لرجال الدين الثلاثة الذين كانوا قد بدأوا يرقصون بشكل مثير للضحك، متقافزين فوق كل شيء يأتي في طريقهم. ولو حاولتُ وصف حالة الآخرين الذين كانوا يراقبونهم لما استطعت ربما. ماذا أقول! لقد فقدَ الكثيرون السيطرة على أنفسهم وسقطوا أرضاً من شدة الضحك. آخرون وضعوا أيديهم على بطونهم متألمين لكثرة ما قهقهوا وترنحوا. وبعضهم تعكر لون عينيه، وتبلل قميصه بالدموع، وانتفخت خدوده واحمرت. وقال أحد الحاضرين: «كم مخجل أن ترى ثلاثة رجال دين على هذه الهيئة، في وقت مبكر من المساء كهذا».

---

(1) اسم أحد الشخصيات في الحكاية من الذين تناولوا «البودينغ» (م).

وانطلقت تعليقات مشابهة من كل زاويـة، لكن ما أثار استغراب الجميع هو أن جاك رافرتي نفسه انضم للراقصين، وصار يرقص بالحماقة نفسها، وكذلك فعل كثيرون، وبعض الضحايا الجدد كانوا من فريق الضاحكين أنفسهم. بعدها انهار على كرسي لبضع دقائق وعندما هم بالوقوف ثانية، ضغطته يدا هاري كونولي لكي يعاود الجلوس، في اللحظة التي وصل فيها عازف المزمار بارني هارتيجان، الذي أُرسل في طلبه منذ بداية اليوم لكن لم يتمكن من القدوم إلا متأخراً. وبعد تسليمه على العروسين وتقبيل يد العروس بكل لباقة واحترام قال للحاضرين: «لقد بدأتم الشغل مبكراً يا أصدقاء. لكن ليأخذني الشيطان إن لُمتكم». وبدأ يعزف لهم معزوفة «تجيج بول ثوج»[1]، واستمر المرح والصخب بل تضاعف بوجود هاري كونولي، الذي أخذ يوزع «البودينغ» بنفسه على الحاضرين. فبدأ بتضييف العروس، التي ما كادت تبتلع أول ملعقة من ذلك «البودنغ» حتى قفزت من مكانها وشبكت يدها بيد القس وطارت للرقص، تحوم وتدور مثل الفراشة. لم يبق أحد من الحاضرين في مكانه، حتى عازف المزمار بارني، أخذ يعزف ويرقص في آن معاً، بعد أن حشا هاري ملعقة من «البودينغ» في فمه. باختصار، بدا الجميع منهمكين

(1) Jig Polghogue معزوفة إيرلندية راقصة (م).

في الرقص بكل مرح وجنون، لكن بمنتهى الجدية أيضاً، وكأن حياتهم تعتمد على ذلك الرقص، وستتوقف بتوقفهم. ووسط كل هذا الهرج والمرج، اقتحم الغرفة فجأة ضيف غير متوقع. فقد قفز «البودينغ» المسحور بينهم متراقصاً، مثلهم، على أنغام المعزوفة التي كان بارني ينط وهو يعزفها في تلك اللحظة. ولم تمضِ لحظات حتى تفرق الحشد بسببه، فارين كل في اتجاه. وكان أغرب ما في المنظر، هربهم لبيوتهم وهم ما زالوا يرقصون. وحتى العروسان دخلا غرفة نومهما راقصين أيضاً. ولا أحد يعلم متى توقف الجميع عن الرقص في تلك الليلة.

حسناً، والآن، ألا ترغبون بمعرفة ما حدث بين هاري وذلك «البودينغ» عندما التقيا بالقرب من النهر؟ في الحقيقة كان هاري في انتظاره عند الضفة، في الوقت الذي رآه يعوم في ماء النهر، بعد أن لاحقه الفلاحون وهرب منهم. سحبه هاري، ووضعه تحت ذيل معطفه. ثم انطلق به – مثلما توقعتم – إلى بيت بادي حيث وضعه في «البودينغ» الجديد، بينما خرج بادي وزوجته ليراقبا السماء مثلما طلب منهما. وقد تمكن هو من سحر ذلك «البودينغ» بأن أمر جنياً بدخوله[1]. وخاصة أن

(1) البعض يصر أن الجن بإمكانهم أن يسحروا «البوديغ» بوضع جني أو جنية فيه، بينما يقول آخرون بأن كمية معينة من مادة تدعى (الفضة السريعة) تضاف إليه تكفي لجعله يرقص طوال اليوم في طول البلدة وعرضها (المؤلف).

علاقة هاري بالجن معروفة للجميع. لكن يؤكد آخرون إضافته للفضة السريعة في المزيج، مما مكنه من الرقص بتلك الطريقة. وعلى كل حال يا أصدقائي، لقد أخبرتكم بمغامرة «البودينغ» المجنون، ولن أفصح عن أي تفصيل آخر مما حدث بعدها، حتى لا أُتهم بالكذب.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





ISBN 978-9948-01-337-2
9 789948 013372